الشعر الجاهلي في كتابي الشعر والشعراء والمعاني الكبير لابن قتيبه : دراسة تحليلية

إعداد
يحيى راشد حسين العمري

المشرف
الاستاذ الدكتور هاشم ياغي

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع ..... التاريخ ٢٠٠٠/٧/٥

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير
في اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا
الجامعة الاردنية

كانون الأول/ ٢٠٠٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت و أجيزت هذه الرسالة بتاريخ ١٨ / ١٢ / ٢٠٠٠ م

أعضاء اللجنة		التوقيع
ـ الأستاذ الدكتور هاشم ياغي	[رئيساً]	
ـ الدكتـــور محمد أبو حمدة	[عضواً]	
ـ الدكتـــور حمدي منصور	[عضواً]	
ـ الأستاذ الدكتور عفيف عبد الرحمن	[عضواً]	

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهداء

إلى والديّ . . . و إخوتي ...

إلى كل من آزرني وعزّز روح المبادرة في دربي

إليهم جميعا أهدي هذا الجهد العلمي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر

إلى شيخي الجليل الأستاذ الدكتور هاشم ياغي الذي غمرنـــي بالرعايـة العلميـة والإرشادات الأبوية ، فكان خير عون لي في متابعة الدرس و الجد ،إليه أزجـــي عظيـم شكري واعتزازي .

وأشكر للسادة أعضاء لجنة المناقشة : الأستاذ الدكتـور عفيـف عبـد الرحمـن ، والدكتور محمد أبو حمدة ، والدكتور حمدي منصور على ما بذلوه من جهود مباركـــة فـي قراءة هذه الرسالة وصقلها بآرائهم لتخرج بالصورة العلمية البهية .

والحمد لله من قبل ومن بعد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس المحتويات

العنوان	رقم الصفحة
١ــ العنوان .	أ
٢ــ قرار لجنة المناقشة .	ب
٣ــإهداء .	ج
٤ــ شكر.	د
٥ــفهرس المحتويات .	هـ
٦ــملخص الرسالة باللغة العربية.	و
٧ــ مقدمة .	١
٨ــ توطئة :	
ــ منهج ابن قتيبة في كتابيه.	٤
ــ رؤية عامة حول الشعر المختار.	١٠
ــ كم الشعر وتعداد الشعراء .	١١
٩ــ الفصل الأول:	
أوضح القضايا في الشعر المختار :	٢١
أــ الحرب :	٢١
ب ــ المرأة.	٥٢
ج ــ الحكمة ومساربها في القيم الجاهلية.	٦٤
١٠ــ الفصل الثاني:	
سبيل عرض ابن قتيبة للشعراء الأربعة	
الأكثر شعرا :	٨٤
ــ عرض ابن قتيبة لشعر امرئ القيس.	٨٤
ــ عرض ابن قتيبة لشعر الأعشى.	٩٦
ــ عرض ابن قتيبة لشعر النابغة الذبياني.	١٠٧
ــ عرض ابن قتيبة لشعر زهير بن أبي سلمى.	١١٩
١١ ــ الخاتمة .	١٢٨
١٢ ــ ثبت المصادر والمراجع.	١٣٠
١٣ــ ملخص الرسالة باللغة الإنجليزية .	١٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملخّص الرسالة باللغة العربية

الشعر الجاهلي في كتابي: الشعر والشعراء و المعاني الكبير لابن قتيبة
" دراسة تحليلية "

إعداد الطالب : يحيى راشد حسين العمري
إشراف الأستاذ الدكتور هاشم ياغي

تناولت هذه الرسالة دراسة الشعر الجاهلي الذي اصطفاه ابن قتيبة في كتابيه : الشعر والشعراء والمعاني الكبير في أبيات المعاني في طريقين: أحدهما حديث والآخر قديم، وقد انتظم عقد هذه الرسالة في مقدمة وفصلين وخاتمة.

تحدثت المقدمة عن صلة الباحث بالبحث وسبيل تناول فصلي الرسالة، وقد جاء التمهيد مخصصاً للحديث عن منهج ابن قتيبة و حصر الشعر الجاهلي وكمّ الشعراء الجاهليين في ثنايا الكتابين، أمّا الفصل الأول فقد قدم عناية بدراسة أوضح القضايا الواردة في الشعر الجاهلي الذي اختاره ابن قتيبة فيهما بصورة جديدة.

أمّا الفصل الثاني فقد عرض لمسارب تقديم ابن قتيبة للشعراء الأربعة الأكثر شعراً في تضاعيف كتابيه،و قد عني بالظواهر التي حاول إبرازها لهم فيها ومدى انسجام ترجماتهم مع ما استنه من منهج في مقدمة كتابه الشعر والشعراء.

وجاءت خاتمة الدراسة تبين خلاصة ما جاء فيها وثمرة ما وصل إليه البحث في ثنايا الكتابين.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقدّمة:

الحمد لله معلم البيان ومُفصح اللسان، والصلاة والسلام على خير الأنام، وبعد :

فمنذ زمن ليس بالبعيد توثّقت صلتي بالشعر الجاهلي وتبوأ من نفسي منزلة كريمة، وقد بدأ مشوار عنايتي بالشعر الجاهلي منذ الدراسة الجامعية الأولى، حين كنت أصغي بشغف إلى تفسير المعلقات والمُفَضّليّات و ما يعبّر عن ثقافة الإنسان الجاهلي في تعامله مع بيئته الطبيعية وبيئته الإنسانية، فضلا عمّا كنت أسمع من وصول الدارس لشعر هذا العصر إلى حصيلة لغوية غنية توصف بالنبع الأساسي الذي لا مفرّ لأي عصر أدبي إلا باستغلال هذا التراث العظيم الذي تركه أصحاب الريادة في الفن الشعري عند العرب.

وكلما رجعت إلى مصدر أو مرجع يتعلّق بسبب ما بالشعر الجاهلي، بادرت إلى الشعر الجاهلي بالدراسة؛ ليسفر لي عن أبعاد جديدة في فهم العصر الجاهلي وقضاياه التي ترسم آفاقاً جديدة في فهم بواعث فن الشعر ــ الذي يصوّر أحوال أصحابه ــ. ولما كان سبيلي كذلك، آثرت الإسراع إلى الأستاذ الدكتور هاشم ياغي لأضع أمامه تصوّري للدراسة التي أنوي القيام عليها، فعرض علي دراسة كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة بتصوّر جديد ورؤية تستغلّ القديم وتحفل بالجديد لإغناء الدراسة مع ملاحظة التطوّر في البحث والنقد، وقد اقترح علي الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي دراسة كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني لابن قتيبة؛ لأنّه كتاب مغمور قيمٌ لم تتناوله دراسة بالبحث والتحليل بشكل منفصل ، فتقبلت رأييهما بقبول حسن.

وقد ساورتني أوهام وشكوك في بداية الأمر حول إعطاء حقّ البحث والدرس لهذين المصنّفين؛ لأن صاحبهما ذاع صيته في تأليف المصنّفات القيّمة من مثل : عيون الأخبار وتأويل مشكل القرآن. إلا أن أستاذي الجليل ما فتئ يوجّه طريق البحث بسداد رأيه وبنهجه العلمي ليذلّل كلّ صَعب أمامي ويوضّح السبيل القويم في تناول الموضوع فيستقيم معه شكل الرسالة ومضمونها العام.

وأيقنت ــ بعد قراءاتي للشعر الجاهلي في هذين المصنفين لابن قتيبة ــ أن فيهما من النظرات التحليلية والوقفات النقدية بين قديم وحديث ما سيبرز عناية جديدة لمصادر التراث العربي وتغني ترابط وجهات النظر وتطوّرها نحو فهم أكثر عمقاً للشعر الجاهلي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولما كان المنهج النقدي الواحد قاصراً عن مناقشة جميع جوانب النص وأبعاده في الزمان والمكان، رأيت أن أقصد المنهج الاجتماعي مع استفادة من معطيات علم النفس، أما من حيث اختيار موضوع دون آخر في مواضيع الشعر الجاهلي في مختارات ابن قتيبة فقد آثرت استخدام المنهج التحليلي الوصفي لدراسة الظواهر الأكثر تداولاً وعناية في الشعر الجاهلي ومدى انطباقها عند ابن قتيبة في ترجمته للشاعر الجاهلي.

وقد تطرّقت دراسات عديدة إلى مصنّفات ابن قتيبة وجهوده اللغوية والنقدية ولكنْ لم تقصرْ أيّ منها الحديث على كتابي "الشعر والشعراء" و "المعاني الكبير في أبيات المعاني" ، بل إن الأخير منهما لم ينل حقه بالبحث ــ على حد علم الباحث ــ رغم ما يحمله من ذخيرة أدبية ولغوية قيمة التحليل للشعر الجاهلي الوارد فيه بجهود ابن قتيبة. أما الدراسات العامة التي تناولت جوانب واسعة من الشعر الجاهلي فقد ساعدت على جلاء نظر الباحث بما تحويه من مساهمات لأشعار وردت في الكتابين ، ومن هذه الدراسات دراسة شوقي ضيف (العصر الجاهلي) ودراسة عفيف عبد الرحمن (الأدب الجاهلي في آثار الدارسين) ودراسة هاشم ياغي وآخرين (تاريخ الأدب الجاهلي).
غير أن جميع الدراسات السابقة جاءت للحديث عن الأدب الجاهلي دون تقيّد منها باختيارات مصنف أو تعليل باحث، بل تجدها تنشد سبر الشعر الجاهلي، ومناقشة أبرز قضاياه، وهي تبحث عن الظاهرة في مجال عام متاح. أما هذه الدراسة فهي تنشد كتابين متخصصين لمصنّف ذاع صيته، وتحليل ما ورد فيهما بشكل محصور؛ لاستنتاج مدى انطباق ما قدّم به المصنّف على اختياراته ومعالجتها بشكل منهجي جديد مع تعريف بالكتابين.

وبعد أن شمّرتُ عن ساعد الجد طال بي الجهد في تصفية أسماء الشعراء الجاهليين من المخضرمين مع تنسيق الشعر الجاهلي وترتيبه على طريق الشاعر تارة وعلى طريق موضوع الشعر تارة أخرى، مع استمرار التأمّل في المرامي الكامنة في كل بيت من الشعر، حتى أن كثيراً منها كان ينسرب في توزيعين اثنين فينسجم التأمّل مع شكل الموضوعات التي تناقشها هذه الدراسة.

وحاولت -قدر ما أستطيع- وصف الظاهرة كما يراها ابن قتيبة وتحليلها بما مثّل عليها من أخبار وأشعار، ومن ثم تفسيرها لاستخلاص النتائج من هذه المختارات وما تبعها من تعليق لابن قتيبة عليها، فلا بدّ من ربط تطبيق هذه الظواهر بين التراجم المختلفة التي وضعها ابن قتيبة مع بعضها في كتابه الشعر والشعراء ــ وبشكل محدد للشعراء الأكثر شعراً ــ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد استقامت سوق هذه الدراسة على توطئة وفصلين وخاتمة، وقد جاءت التوطئة معزّزة بتعريفٍ موجز بالكتابين، وبتوضيح نهج ابن قتيبة فيهما مع تعداد للشعر الجاهلي الوارد فيهما، وبيان كمّ الشعراء الجاهليين المذكورين في تضاعيفهما وما جاؤوا عليه من موضوعات في ذلك الشعر.

وبعد التوطئة تجزّأ البحث إلى فصلين :

الأول : وسمته بـ (أوضح القضايا الواردة في الشعر الجاهلي الوارد في الكتابين).

وقد اشتمل هذا الفصل على اختيار الموضوعات الأكثر تداولاً بين الشعراء الجاهليين في مختارات ابن قتيبة، وعالجت فيه موضوعات الحرب والمرأة ومسارب الحكمة في نظر الشاعر الجاهلي ضمن مختارات شعرية، وقد استحضرت فيها دور البيئة الاجتماعية والنفسية عند الإنسان الجاهلي، وناقشت مدى انعكاس سلوك الفرد وآماله ضمن معطيات بيئته القبلية.

والثاني : وسمته بـ (سبيل عرض ابن قتيبة للشعراء الأربعة الأكثر شعراً)

وقد اشتمل هذا الفصل على تحليل نهج ابن قتيبة في ترجمة الشعراء الأكثر شعراً، ومتابعة ما جدّ من ظواهر في ترجماتهم عن غيرهم، ونقد مساره في معالجة أشعارهم وفقاً لمنهج الاستحسان الذي استنّه لنفسه في مقدمة كتابه الشعر والشعراء. وحاولت ملاحظة مدى التشابه والاختلاف الذي ميّز عرضه لكل من الشعراء الأربعة : امرئ القيس، والأعشى، والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى.

ثم أعقبت هذا البحث بخاتمة أوجزت فيها ما توصلت إليه الدراسة من أوضح النتائج.

وبعد فإن هذه الرسالة تعدّ مساهمة متخصّصة في رعاية تراث المكتبة العربية، وتذكيراً بأهمية توصيل مساهمات تعيد إحياء تراثنا. وما هذه الدراسة إلا مساهمة متواضعة في جهود مصنّف أبدع في ألوان شتى من العلوم وخاصّة في الشعر الجاهلي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منهج ابن قتيبة في كتابيه

نهج ابن قتيبة في مصنّفيه بين كونه إخبارياً لقصص الشعراء وما جاء فيها من شعرهم ليوضّح هذه الأخبار، وبين كونه مصنّفاً لموضوع الشعر فيدخل في جعبة كتابه المعاني الكبير كل ما يتصل بموضوع التصنيف من الأشعار التي تتقارب في وصف الموضوع الذي يعالجه، وتبيّن ملامح شكل الإبداع الشعري بعد تفسيره لمعاني مختاراته تفسيراً يُبعد مظاهر الوحشة عن هذه المختارات.

فيستهلّ ابن قتيبة كتاب الشعر والشعراء بمقدمة قيّمة تعكس روحاً تتوق لذكر الأخبار، وتُصوّر جزءاً مميّزاً من حياة الشعراء ذاكراً الطريف من أخبارهم وشرف أقدارهم في الفن الشعري، فكانت هذه الأخبار من الأهمية ما جعلها تأخذ الأسبقية في ترجمة الشعراء عنده يقول ابن قتيبة : "هذا كتاب ألّفتُه في الشعراء، وأخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم، وأحوالهم في أشعارهم وقبائلهم وأسماء آبائهم، ومن كان يعرف باللقب أو بالكنية منهم، وعما يستحسن من أخبار الرّجل ويُستجاد من شعره ... وما سبق إليه المتقدّمون فأخذه عنهم المتأخّرون"[١].

ويؤكّد اهتمامَه بالأخبار وروايتها ما صرح به بعد تعليله ذكر المشهورين من الشعراء للاحتجاج بأشعارهم يقول ابن قتيبة : " فأمّا من خفي اسمه وقلّ ذكره وكَسَد شعره، وكان لا يعرفه إلا بعض الخواصّ فما أقلّ من ذكرت من هذه الطبقة؛ إذ كنت لا أعرف منهم إلا القليل ولا أعرف لذلك القليل أيضاً أخباراً "[٢].

ويبدو أن الأخبار وروايتها نالت قدراً كبيراً من تصوّر ابن قتيبة في حكمه على الأهمية والشهرة عند أهل العلم، فقد رتب أصحاب الأخبار ورواتها بمنزلة تلي رواة الحديث من جهة وتسبق الملوك والأشراف من جهة أخرى يقول : "ولعلك تظن -رحمك الله- إنه يجب على من ألّف كتابنا هذا ألا يدع شاعراً قديماً ولا حديثاً إلا ذكره ودلّك عليه، وتقدّر أن يكون الشعراء بمنزلة رواة الحديث والأخبار والملوك والأشراف الذين يبلغهم الإحصاء ويجمعهم العدد"[٣].

ولم يهتمّ ابن قتيبة بكونه إخبارياً لذات الخبر ولكن كان في قصصهم عبرة لأولي الأبصار فارتبط الخبر بالفائدة الدنيوية التي تستغل خبرات الشعراء وأقوامهم في نظرتهم

---

[١] الشعر والشعراء جـ ١ ص٧.

[٢] المصدر نفسه جـ ١ ص٨.

[٣] المصدر نفسه ج١ ص٨.حتى لو كان قصده الحديث عن السيرة الشريفة يبقى الشأن الاهتمام بالخبر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لحياتهم الاجتماعية والاقتصادية والنفسية، يقول ابن قتيبة : " وكان حقّ هذا الكتاب أن أودعه الأخبار عن جلالة قدر الشعر وعظيم خَطَره، وعمّن رفعه الله بالمديح، وعمّن وضعه بالهجاء، وعما أودعته العرب من الأخبار النافعة، والأنساب الصحاح، والحكم المضارعة لحكم الفلاسفة، والعلوم في الخيل ،والنجوم وأنوائها والاهتداء بها، والرياح وما كان منها جَهاماً أو ماطراً، وعمّا يبعث منه البخيل على السّماح، والجبان على اللقاء، والدَّنيّ على السّمو "[١].

ولعل ابن قتيبة قد جاء على جلّ الموضوعات الآنفة وحصر بها ما قطفته يداه من ثمار الدواوين، وصنّف الشعر الذي فيهما على طريق الشاعر وصنّفه في كتاب "الشعر والشعراء" أو استقرى أبيات المعاني وما يقارب من معناها من شعر، وصنّفه في تلك الموضوعات مع شرحها مجملة أو مفصلة في كتاب "المعاني الكبير في أبيات المعاني"[٢]. فكانت الأخبار في تفصيلها مع ذكر الأشعار ديدن ابن قتيبة وهاجساً مستمراً لا يغادر ذهنه، وقد أحصت الدراسة ما يقارب المئتي بيتٍ من الشعر تدور حول الأخبار القصصية الطابع في ثنايا الكتابين. ولم تكن الأخبار ــ وحدها ــ سبيل ابن قتيبة في اختياراته الشعرية، ولكنها كانت شكلاً تقديمياً لمنهجه النقدي الذي بدأ يمهّد له في مقدمة " الشعر والشعراء "؛ لأن العلماء عندهم هذه الأخبار، وابن قتيبة واحد منهم وصلته هذه الأخبار كما وصلت لغيره، فلا بد له أن يميز الخبيث من الطيب في شعر القدماء والمحدثين يقول ابن قتيبة : " ولم أسلُك في ما ذكرته من شعر كل شاعرٍ مختاراً له، سبيل من قلّد أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرت إلى المتقدّم منهم بعين الجلالة لتقدُّمِه، وإلى المتأخّر منهم بعين الاحتقار لتأخُّرِه، بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلاً حظّه، ووفرت عليه حقّه "[٣].

ولا بدّ من ثوابت يرتكز عليها ابن قتيبة؛ ليقف أمام علماء الأدب واللغة الذين يتخيّرون القديم –ولو سَخُفَ معناه وقلّ رونقه– يقول قتيبة راداً على المتشددين في الاعتداد بالقديم: " ولم يَقْصُرِ الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصّ به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوماً بين عباده في كل دهر وجعل كلّ قديمٍ حديثاً في عصره"[٤]

٥٣٥١٣١

---

[١] الشعر والشعراء ج١ ص١١ أودع ابن قتيبة في كتابه "العرب " تفصيلاً لشكل هذه الأخبار النافعة أنظر حول كتاب العرب هامش رقم ٣ ص١١

[٢] يتعجب الباحث من عدم ذكر موضوعات الحرب والمرأة على الرغم من التعداد الكبير لهما في كتابيه وشيوع الأخبار والقصص التي تحدثت عنهما بين دفتيهما. راجع كم الشعر في الصفحات اللاحقة من هذه الدراسة لتبين ذلك.

[٣] الشعر والشعراء جـ ١ ص ١٠ انظر تعليق المحقق في الهامش رقم ٣ حول أخبار أبي تمام للصولي.

[٤] المصدر نفسه جـ ١ ص١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فإذا كان استحسان شعر شاعر ينبع من ذات الشعر في معناه وموضوعه ، بعد التأكُّد من حسن اللفظ، أو الإصابة في التشبيه، أو خفة الروي، أو لأن قائله لم يقُل غيره، فكان شعره قليلاً عزيزاً، أو لغرابة المعنى في إبداع تصوير خبرة الشاعر[١] . فإن من الأولى تطبيق ميزان الاستحسان على أقسام الشعر في كلِّ زمان ومكان، وتتجاوز بعدها المختارات الشعرية رأيَ قاصرٍ من العلماء، أو حكمَ مُتحيِّزٍ إلى فئة متعصبة بأفكارها، وما دام أن الدراسة تدور حول الشعر الجاهلي فإن عدد الشعراء الجاهليين الذين انطووا في ثنايا الكتابين بلغ عددهم مئة وأربعة وثلاثين شاعراً من تعداد مئتين وستة شعراء، وكانوا في تعدادهم وتعداد شعرهم يشكلون ما يزيد على ثلثي مختارات ابن قتيبة في كتابيه مع ضمان ميزان الجودة ضمن منهج استحسان اللفظ والمعنى[٢] .

ويقرّ ابن قتيبة بوعورة الطريق وصعوبة الحكم على جودة الشعر؛ لأنه بحاجة إلى كثرة السماع والرواية، بالإضافة إلى المعرفة اللّغويّة بأسماء الرجال والأماكن وتنوّع الحياة النباتيّة والحيوانية، واختلاف النظر في وحشيّ الكلام،وهذه الوعورة تُشعِر الناقد أو السامع لشعر شاعر ما أن " أشعر الناس من أنت في شعره حتى تَفرُغ منه "[٣]، ولكنّ تدبُّرَ ابن قتيبة أرشده إلى أضرُب الشعر الأربعة: " ضربٍ منه حَسُن لفظه وجاد معناه ... وضربٍ منه حَسُن لفظه وحلا فإذا أنت فتّشتَه لم تجد هناك فائدة في المعنى... وضربٍ منه جاد معناه وقصّرت ألفاظه عنه ... وضربٍ منه تأخّر معناه وتأخّر لفظه " [٤].

فإذا استتمّ الشاعر فنّه، ووازن بين اللفظ والمعنى في شكله الحسن المبدع، ألزمته التقاليد اتباع سَنَن الشعراء في فنّهم الشعري عن طريق استدراج السامع والتأثير عليه بصورة سمعية بصرية تخيلية تثير المشاعر؛ للوصول بعدها إلى الموضوع الذي يبغيه الشاعر في قصيدته، فبعد الوقوف على الأطلال والبكاء مع الصحب عليها " ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها

---

(١)الشعر والشعراء جـ١ ص٢٩ -٣٢.

(٢) انظر المصدر نفسه جـ١ ص ٢٦ كيف بنى ابن قتيبة رأيه على شعر النابغة الجعدي قول : "ولا أحسب أحداً من أهل التمييز والنظر ، نظر بعين العدل وترك طريق التقليد يستطيع أن يقدم أحداً من المتقدمين المكثرين على أحد إلا بأن ترى الجيد في شعره أكثر من الجيد في شعر غيره " فإذا كانت المقارنة بين جاهلي ومخضرم بهذه الصورة العلمية المنهجية فهذه الأحكام التي يصدرها النقاد والقدماء بحاجة إلى إعادة نظر.

(٣) الشعر والشعراء جـ١ ص ٢٦.

(٤) المصدر نفسه جـ١ ص ١٢ أنظر رسالة دكتوراه عبد الكريم محمد حسين : نقد الشعر عند ابن قتيبة مصادره وأثره في من بعده ففضلت عدم تكرار لأن صاحب الرسالة تعمق بها هذا في المنحى.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الظاعنين عنها، إذا كان نازلة العمد في الحلول والظعن، على خلاف ما عليه نازلة المدر؛ لانتقالهم من ماءٍ إلى ماء، وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان، ثم يصل ذلك بالنسيب، فشكا شدّة الوجد وألم الفراق، وفرط الصّبابة والشّوق؛ ليميلَ نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه وليستدعيَ به إصغاء الأسماع إليه؛ لأن التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب لما جعل الله في تركيب العباد من محبّة الغزل وإلْفِ النساء... فإذا استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له، عقّب بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره، وشكا النَّصَبَ والسَّهَر وسُرى الليل، وحرّ الهجير وإنضاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنّه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء ... وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير، بدأ في المديح، فبعثه على المكافأة، وهزّه للسماح، وفضّله على الأشباه، وصغّر في قدره الجزيل " [١] .

ويرى ابن قتيبة هذه الأقسام دليلاً على استحسان الشعر عند النقاد " فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب،وعدل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر، ولم يُطِلْ فيملَّ السامعين، ولم يقطعْ وبالنفوس ظمأٌ للمزيد " [٢]، ولم يكتف ابن قتيبة بهذه الطقوس الكرنفالية لقول الشعر، بل إنه لم يُجزْ للشّاعر المتأخّر أن يتناول في شعره غير هذه الأساليب أو يبدلَها بالبكاء عند بناء عالٍ، أو يسافر على ظهر حمار، فينزل على ماء عذْب فيه ما راق لونه من ورود ويَرِدُه النّاس في كل حين[٣].

ويُظهر ابن قتيبة في مقدمة الشعروالشعراء رغبة في تعليم نَشْء الشعراء سُبُل الفصاحة بامتثال ما ضرب من أخبار على كل ما استقرى من أشعار القدماء؛ ليَبقى وسم الإخباري القصصي في مرتبة أولى من صفاته –في كتاب الشعر والشعراء بشكل أساسي–[٤]

وتأتي قضية التكلّف والطبع شكلاً من محاور الإبداع الشّعري، ويبرز ميل ابن قتيبة إلى الإخبار عن التكلف في مدرسة أوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى والأجيال اللاحقة لهما ويزداد تركيزه على الخبر في دواعي الشعر التي تحثّ البطيء وتبعث المتكلّف على الإسراع

---

(١)الشعر والشعراء جـ١ ص ٢٠-٢١

(٢) المصدر نفسه جـ١ ص٢١

(٣)انظر المصدر نفسه جـ١ ص٢٢

(٤)انظر ما ضرب من أمثلة على أخبار الشعراء في مقدمته جـ١ ص٨-٩ وص١٤-١٥ ص١٧ ص١٩-٢٠،ص٢١-٢٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في قول الشعر كالشراب والطرب والغضب والطمع[١]، ممَ يؤدي ــ أحياناً ــ إلى اختلاف شعر شاعر ما عن باقي شعره المعروف بين علماء الأدب والنقد. [٢]

ويتلمّس ابن قتيبة لحظة الإبداع الشعري، ووقت تجلّيها ليصدر عنها الشاعر بما تسمح نفسُه من فنّ الشعر، وكأنه يوحي بلحظة الإلهام التي يؤجّجها امتداد السهول الخضراء وجريان الماء، بالإضافة إلى ما يثير نوازع الشهوة واللّذة والغضب [٣]، وكأنّ ابن قتيبة يتحسّس طريق العلماء من بعده؛ كي يُشبعوا هذه المقدمة شرحاً وتفصيلاً ويُخرِجوا من بذرتها للدارسين نظرياتهم في قضايا الفن الشعري الإبداعي[٤].

غير أن ابن قتيبة نحا تفصيلاً آخر في نظرته إلى طريق مسير كتابه "المعاني الكبير"–الذي اخترم الزمان مقدمته– فجاء تقسيم المصنّف إلى مجموعة من الكتب حملت عناوين موضوعات جاءت على شكل أجزاء هي:" كتاب الخيل"، و" كتاب السباع"، و"كتاب الطعام والضيافة" و"كتاب الذباب وغيره" و" كتاب الوعيد والبيان" و"كتاب الحرب" و"كتاب الميسر وغيره" ويليه "باب في الشعر والشعراء". وينقص الكتاب المحقّق منذ عام ١٩٤٩م أبواب الإبل،والديار،والرياح،والنسل والغزل، وتصحيف العلماء [٥].

ولعل في مقدمة المحقّق ما يغني الدارس حول قيمة كتاب المعاني الكبير،فالكتاب متفرد بين أقرانه من كتب المعاني في جمعه لأكبر قدر ممكن من أبيات المعاني " وبقية كتب هذا الفن مفقودة إلا كتاب الأشنانداني وهو مختصر جداً لا يكاد يبلغ نصف عشر الموجود من هذا الكتاب " [٦] وقد تميّز ابن قتيبة بأنه " ذكر العويص من الشعر "[٧] بل فسّر الشعر

---

[١] الشعر والشعراء جـ١ ص٢٣ انظر أخبار عُسْرِ قول الشعر وأوقاته ص٢٤-٢٥ أو تعليل ابن قتيبة سبب اختلاف شعر شاعر ما

[٢] انظر المصدر نفسه جـ١ ص٢٥

[٣] انظر المصدر نفسه جـ١ ص٢٤

[٤] انظر الفصل الخاص بآثار ابن قتيبة فيمن بعده في رسالة دكتوراه عبد الكريم محمد حسين ــ نقد الشعر عند ابن قتيبة مصادره وأثرة فيمن بعده وانظر عبد السلام عبد العال ــ نقد الشعر عند ابن قتيبة وابن طباطبا العلوي.وانظر عبد الحميد الجندي ــ ابن قتيبة العالم الناقد الأديب .

[٥] انظر مقدمة الكتاب تحت عنوان رجاء بقلم المحقق .

[٦] المعاني الكبير جـ١ ص كز من المقدمة التي كتبها المحقّق انظر السيوطي المزهر جـ١ ص٣٧٥.

[٧] المصدر نفسه جـ١ ص كز من المقدمة انظر بروكلمان تاريخ الآداب العربية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذكر ما يقرب منه وما يتصل بمعناه، حتى أصبح غنيمة لروّاد العلم الذين يبحثون عن الشعر في موضوع واحدٍ مفسّرٍ تفسيراً لغوياً حينًا، وأخرى يفسّره بمُجْمَل معناه مع تنميق المعنى بذكر ما يناسب من شعر ضمن عصر الاحتجاج على الأغلب الأعمّ من مؤلف يعدّ " من الأئمة الذين يستند إلى قولهم ونقلهم في اللّغة والغريب وفي هذا الكتاب جملة كبيرة من ذلك بحيث يصحّ أن يُعَدّ كتاب لغة لا كتاب أدب وشعر فقط " [١] .

ويبرز المحقّق أهم خصائص المصنّف بقوله : " وتراه يتحرّى حسن التخلّص من باب إلى باب مع مراعاة المناسبة، ويجمع بين النظائر، ويضم الشيء إلى مثله والشكل إلى شكله، وبذلك يتهيأ للمطالع الإحاطة بكلّ موضوع في مكان واحد... ومن أثمن ما فيه جمع الأشعار الغريبة البديعة في صفات الوحوش والطير والهوام والحشرات" [٢] وكأنّ ابن قتيبة يعرض شكل عنايته بترتيب الشعر وتصنيفه مع التقديم لصورة الباب أو الكتاب الذي هو بصدده بمجموعة من الأبيات[٣].

" ومن تدبّر أبيات المعاني بان له أن خفاء معانيها إنما يكون غالباً لغرابة الأسلوب، وبُعْد المأخذ، وطرافة الاستعارة؛ فهي لذلك من آيات البلاغة، ولم يكن يتعاطاها إلا فحول الشعراء، كأنهم إنما يقصدون بها الدلالة على تفوّقهم في الشعر وتمكّنهم منه "[٤] فإذا كان هذا الجهد حال الشّعراء فكيف سيكون حال العلماء الذين يقصّون أثر أبيات المعاني، ويلهجون في البحث عن الأبيات التي تتضمّنها في بطون دواوين الشعراء أو دواوين القبائل أو كتب المختارات الشعرية المشهورة، ولا يقوم بهذا العبء إلا من تبحّر في اللّغة والأدب ونهج سبل السلامة في التنظيم وحسن الإدارة لهذه الأبيات التي تدور معانيها ومناسبة قولها في ألوان إخبارية شتى،فلا يحيط بها إلا من وعى حقّ العلم في رعاية وعورة اللغة بإيصال طلاب العلم إلى برّ الأمان في احترام تراثهم الأدبيّ وفهمه مفسّراً مصنّفاً ضمن موضوعات.

---

[١] المصدر نفسه جـ١ ص كز من المقدمة. انظر مكانه ابن قتيبة العلمية في المقدمة جـ١ ص ي-يج وانظر ص يد انظر هـ-و انظر ترجمته عند أحمد زكي العدوي -عيون الأخبار بداية المجلد الرابع.

[٢] المصدر نفسه جـ١ ص كط – ل من المقدمة.

[٣] انظر المصدر نفسه جـ١ ص ٢-٤.

[٤] المعاني الكبير جـ١ ص ج المقدمة . انظر السيوطي المزهر جـ١ ص ٣٧٥ وصف الكتاب بحسن الترتيب وضخامة المادة العلمية في تنوع المختارات الشعرية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رؤية عامة حول الشعر

يلاحظ المتتبع لمختارات ابن قتيبة في كتابيه : "الشعر والشعراء" و"المعاني الكبير" اتصال الشعر الجاهلي فيهما بالبيئة الاجتماعية التي حاورت قضاياها ذهن الشاعر الجاهلي وملأت عليه نفسه ؛ فأبرزها ابن قتيبة في مختارات تدور في فلك الشاعر ــ وحده ــ تارة أو تمور على شكل أغراض تتدرج في عقد منتظم لغير شاعر جاهلي تارة أخرى .

وعلى الرغم من اختلاف بيئات الشعراء وتعدّد همومهم القبلية ومدى اتصالها بمصالحهم الشخصية ــ ما لم تتعارض مع مصالح القبلية ــ إلا أن هذه البيئات الاجتماعية ساعدت على رسم صورة واضحة ــ كما سيأتي لاحقا ــ قادرة على الإلمام بالمحاور التي تتصل بالبيئة الاجتماعية من مثل: البيئة الاقتصادية والبيئة السياسية والبيئة الطبيعية ...إلخ .

والناظر للشعر الجاهلي من مختارات ابن قتيبة في كتابيه لابدّ سيلمح منهج القدماء في تحكيم النظر في ميزان القبول والرفض ، والجودة والرداءة لشعر القدماء ، ويحاول هذا البحث تلمّس طريق الاختيار بغير ما صرح به ابن قتيبة في مقدمة كتابه "الشعر والشعراء" ، ففي دراسة هذه المختارات خدمة لتصوير البيئة الاجتماعية قياسًا إلى عدد الشعراء الذين ورد ذكرهم في الكتابين، وإلى مدى دوران أغراض دون أخرى في هذه المختارات ؛ لتساهم هذه الدراسة في بيان الأمور التي طرقها الشعراء بشكل مميّز دون غيرها ، ولتساهم في إعطاء صورة عن منهج ابن قتيبة الذي استنّه لنفسه في مدى دوران هذه الأغراض المميّزة دون غيرها في كتابيه .

وإذا كانت أغراض الشعراء من فخر ومدح ووصف وغزل ...إلخ محور اهتمام ابن قتيبة ، فإن محور اهتمام هذا البحث يدور حول التفاعلات الاجتماعية التي ترسم نظرة الشاعر الجاهلي بشموليّة العلاقات التي ترتبط بهذه التفاعلات ، و لعل ما يدخل فيها من موضوعات الحرب والمرأة، والموت، والخمر، ومظاهر الحياة الطبيعية من نبات وحيوان وماء هو من أبرز ما يصوّر طبيعة المعاناة التي ظهرت في التجربة الشعريّة الجاهليّة ولعبت دوراً في صياغة البيئة الاجتماعية بطابعها الخاص.

ولهذا أوضح ابن قتيبة مجموعة من مظاهر النظام القبلي والعادات الاجتماعية من مثل الميسر وأشكاله، والتشاؤم والتفاؤل بمظاهر الحياة الاجتماعيّة ، والكرم والجوار والحلف والإغاثة، والدعاء بالشرّ وباليمن ، وألفاظ الأيمان التي اتّفقوا على القسم بها ، وطبيعة الهجاء التي تهدّد حيوية المهجوّ ، وينتهي المطاف به إلى الحديث عن القرابة والنكاح والنسب والأولاد ... إلى ما هناك من مظاهر الحياة الاجتماعيّة التي نالت حظّاً وافرًا من كمّ هذا الشعر الجاهلي على امتداد بيئة الزمن الجاهلي واختلاف بيئته المكانية التي أحاطت بالجزيرة العربيّة في ذلك الزمان .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كمّ الشعر وتعداد الشعراء

طوّف ابن قتيبة في اختياراته لمقطوعات شعريّة لأعلام الشعراء الجاهليّين من شتّى بيئات الجزيرة العربية وبلاد الشام والرافدين ، وقد جاءت جداول أسماء الشعراء الجاهليين وأعدادهم زاخرة باختلاف البيئات الزمانيّة ضمن العصر الجاهلي[١] ، ولكنّ ابن قتيبة صرّح بمنهجه في كتاب الشعر والشعراء ، ولعل أغنى ما في هذا المنهج ما ورد عن طبيعة اهتمامه بالشعر ــ لا بقائله ــ ولكن يحكُمه عنوان الكتاب لذا يقول : " وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جلّ أهل الأدب ، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو "[٢] ... " فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له ، وأثبتنا به عليه، ولم يضعه عندنا تأخّرُ قائله أو فاعله ، أو حداثةُ سنه . كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدّم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرفُ صاحبه ولا تقدّمُه "[٣].

لذا وقع الاختيار في كتابيّ ابن قتيبة ــ بعد النظر في أسماء الشعراء وتعداد شعرهم ــ على المشهورين منهم بحسن السبك اللفظي وإجادة المعاني وتصويرها بلاغيا ــ قدر المستطاع ــ [٤] للنظر في صورة تحليلية للشعر الجاهلي فيهما، وملاحظة عناية ابن قتيبة بقضايا الشعر الجاهلي الأساسية التي تُنبئ بصورة واضحة موسّعة حول القضايا التي شغلت ذهن الشاعر الجاهلي ، وتدخّلتْ في تشكيل وعيه داخل صوره الشعرية لتعبّر عن حقيقية تجربته الشعرية قدر الإمكان بالمنهج الإحصائي الوصفي. وبناء على معطيات تصنيف الشعر والشعراء فقد وصل البحث إلى النتائج التالية :

أولا : بلغ تعداد الشعر الجاهلي [٥] ما يقارب ألفين وخمسمئة بيت، وقد تكرر منها في ثنايا الكتابين مئة وستة وعشرون بيتًا دون حسابها مع المجموع العام للشعر الجاهلي .

---

[١] انظر رأي الدكتور هاشم ياغي في كتابه تاريخ الأدب العربي ص ٢٢-٢٣حيث يرى عدم تطور الشعر من أيام امرئ القيس حتى زهير بن أبي سلمى الذي مات قبيل ظهور الإسلام [فترة مئة وخمسين سنة قبل الإسلام كما يقول الجاحظ] .

[٢] الشعر والشعراء ج١ ص٧ المقدمة .

[٣] المصدر نفسه ج١ ص٧ المقدمة .

[٤] انظر أقسام الشعر عند ابن قتيبة حول جودة المعنى واللفظ في المصدر نفسه ص٢٩ــ٣٥

[٥] يتفق الباحث مع الدكتور نصرت عبد الرحمن في استبعاد شعر المخضرمين رغم التقارب الكبير بين الشعر الجاهلي وبين شعر المخضرمين خوفا من تغيير الشاعر أو رواته في الشعر انظر نصرت عبد الرحمن ــ الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ــ المقدمة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا : بلغ تعداد شعر المخضرمين ما يقارب ألف بيت .

ثالثا : بلغ تصنيف الشعر بما يخدم الصورة التحليلية للقضايا في العصر الجاهلي ثلاثة آلاف وأربع مئة وسبعة وسبعين بيتاً من مجموع الشعر الجاهلي (٢٤٥٣) بيتا نظراً لما تحويه من قضايا في البيت نفسه أو المقطوعة ذاتها مما يؤكّد ضرورة تصنيف بعض الأبيات في تصنيفين مختلفين .

رابعا : كان محور تكرار الأبيات في الكتابين محصورا بشكل مميز بين أصحاب الطبقة الأولى في الشعر الجاهلي : امرئ القيس، والأعشى، والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى، لقضايا الحرب والمرأة والمدح والحكمة وكان النابغة الذبياني في أعلى صورة مميزة من التكرار، حيث بلغ تكرار بعض الأبيات فيهما ثلاثاً وخمسين مرّة، تلاه امرؤ القيس بأربعين مرة، وزهير بثماني عشرة مرّة، والأعشى بخمس عشرة مرّة .

خامسا : وقعت أشعار مئة وأربعة وثلاثين شاعراً تحت يدي ابن قتيبة حيث صنّفها تارة تحت اسم الشاعر كما في" الشعر والشعراء " أو تحت مواضيع معينة تارة أخرى كما في " المعاني الكبير" .[١]

سادسا : جاءت اختيارات ابن قتيبة شاملة لبيئات شعراء من أجزاء الجزيرة العربية وبلاد الرافدين ، ولكن استأثرت بيئة جنوبيّ العراق وشماليّ نجد والحيرة وما حولها والخليج العربي وشرقيّ الجزيرة واليمامة على اهتمام ابن قتيبة، فقد حازت على أكثر من ثلثي الشعر الجاهلي الموجود في الكتابين ــ وهذا ما يتجاوز العدد بأكثر من ألفي بيت من مجموع ما يقارب من ألفين وخمسمئة بيت ــ فمن غير شعراء المعلقات برز في أنحاء البيئة المكانية للعصر الجاهلي ما يلي :[٢]

١ ــ من شعراء الشام وجنوبيّ العراق وشماليّ نجد [قبائل كلب وقضاعة ، وتغلب وبكر] الأخنس التغلبي ،و أفنون التغلبي ، وعمرو بن قميئة ،و وعلة الجرمي ،و المهلهل ابن ربيعه،و المرقش الأكبر ،والمرقش الأصغر ، والفَنِد الزِّمّاني ،و المرار العجلى ، وعبدالله بن عنمة ،و مقّاس العائذي ، و سهم بن حنظلة الغنوي.

٢ ــ من شعراء الحيرة وما حولها :

أبو دؤاد الإيادي ،و عبد المسيح بن عسلة ، و أوس بن حجر ،و المتلمّس ،ولقيط الإيادي ،و المسيّب بن علس ، وقُس بن ساعدة الإيادي ،و عبد قيس بن خفاف البرجمي ،و عَديّ بن زيد العِبادي ،و المنخّل اليشكري .

---

[١] انظر تصنيف شعرهم في الجدول التالي حسب طريقة البحث .

[٢] ارتأى الباحث الاستعانة بتقسيم فؤاد سزكين ــ تاريخ التراث العربي المجلد الثاني (١-٢).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣ ــ من شعراء الفرات الأدنى والخليج العربي وشرقي الجزيرة واليمامة [باهلة وعبد القيس وتميم] :

أعشى باهلة ،و المثقب العبدي ،و الأضبط بن قريع ،و أوس بــن غلفاء الهجيمي ، والممزق العبدي، و ضمرة بن ضمرة النهشلي، و سلامة بن جندل، ولقيط بن زرارة و ذو الخرق الطهوي و نهشل بن حري النهشلي وعمرو بن الأهتم المنقري و ضابئ ابن الحارث البرجمي ،و موسى بن جابر الحنفي .

سابعا : تجاوز الشعراء المشهورون ــ ككتاب طبقات ابن سلام ــإعجاب ابن قتيبة؛ لأنهم الشعراء الأكثر تداولا في الاستشهاد بشعرهم فتجاوز معظمهم عتبة خمســـــــة وعشرين بيتا ، وقد تجاوز سبعـــــة منهم مئة بيت وهم : امرؤ القيس، والأعشى والنابغة الذبياني، وزهير [أصحاب الطبقة الأولى في طبقات ابن سلام] ولحق بهم عدي بن زيد العبادي، و طرفة بن العبد، و أوس بن حجر .

ولعل أكثر ما يلاحظ في تعداد الشعراء [١٣٤ شاعرا] كونـــهم يمثلــون تجــارب شعرية شتى في قبائلهم، فمن أبناء الملوك إلى أشد الصعاليك جوعا وتشردا ومن بيئة المدينـــة إلى بيئة القرية والبادية ومن بيئة الحروب إلى حالة السلم ... إلخ . *

* انظر الجدول المرفق بأسماء الشعراء وتعداد شعرهم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضوع	عدد الأبيات
الحرب	818
المرأة	367
القيم القبليّة	336
الخيل	322
الحكمة	213
القصص	201
الطعام	200
الموت	136
الطيور	134
الثور و الصيد	128
الملوك والسادة	111
الخمر والموسيقى	99
الطِّيَرَة	92
المعاناة	84
السباع	68
الشيب والكبر	56
الظباء والبقر	52
الإبل	42
المطر	18
المجموع	3477

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

	اسم الشاعر	عدد أبيات الشعر
-1	امرؤ القيس	193
-2	الأعشى ميمون بن قيس	190
-3	النابغة الذبياني	184
-4	زهير بن أبي سلمى	138
-5	عدي بن زيد العبادي	121
-6	طرفة بن العبد	110
-7	أوس بن حجر	100
-8	أبو دؤاد الإيادي	91
-9	عنترة	79
-10	ساعدة بن جؤية	76
-11	بشر بن أبي خازم	68
-12	الحارث بن حلزة اليشكري	67
-13	أبو كبير الهذلي	52
-14	طفيل الغنوي	50
-15	المسيب بن علس	49
-16	خداش بن زهير	44
-17	المرقش الأكبر	40
-18	عبيد بن الأبرص	37
-19	سلامة بن جندل	31
-20	حاتم الطائي	28
-21	علقمة الفحل	27
-22	تأبط شرا	25
-23	المنخل الهذلي	24
-24	عمرو بن قميئة	23
-25	صخر الغي	23

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-26	المهلهل	23
-27	المثقب العبدي	22
-28	عروة بن الورد	20
-29	المتلمس	20
-30	المنخل اليشكري	19
-31	المرقش الأصغر	19
-32	لقيط بن زرارة	18
-33	ذو الإصبع العدواني	17
-34	المرار العجلي	16
-35	عمروبن كلثوم	15
-36	الأعلم الهذلي	13
-37	الأسود بن يعفر	13
-38	أبو الصلت الثقفي	13
-39	قيس بن الخطيم	12
-40	دريد بن الصمة	12
-41	عامر بن الطفيل	11
-42	حميد بن ثور	11
-43	النجاشي	11
-44	سلمة بن الخرشب	10
-45	الممزق العبدي	10
-46	أبو المثلم الهذلي	10
-47	أبو الطمحان القيني	10
-48	يزيد بن خذاق	9
-49	جران العود	9
-50	مقاس العائذي	8
-51	الأسعر الجعفي	8
-52	مالك بن الحارث الهذلي	7

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-53	صخر أخو الخنساء	7
-54	الأفوه الأودي	7
-55	وعلة الجرمي	6
-56	عمرو بن شأس	6
-57	ضابئ بن الحارث البرجمي	6
-58	سويد بن خذاق	6
-59	زهير بن جناب الكلبي	6
-60	الأضبط بن قريع	6
-61	أفنون التغلبي	6
-62	أسامة بن الحارث	6
-63	يزيد بن الصعق	5
-64	عوف بن عطية الخرع	5
-65	سليك بن السلكة	5
-66	أوس بن غلفاء	5
-67	الشنفرى	5
-68	معقل بن خويلد	4
-69	مالك بن خالد الخناعي	4
-70	عمرو ذو الكلب	4
-71	ساعدة بن العجلان الهذلي	4
-72	أنس بن مدرك الخثعمي	4
-73	المستوغر	4
-74	الأخنس بن شهاب التغلبي	4
-75	أبو قيس بن الأسلت	4
-76	معقل بن خالد الهذلي	3
-77	قيس بن عيزارة	3
-78	عميرة بن جعل التغلبي	3
-79	عبد المسيح بن عسلة	3

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-80	عبد الله بن عنمة	3
-81	عبد الله بن سلمة الأزدي	3
-82	خويلد بن مطحل	3
-83	جنوب أخت عمرو ذي الكلب	3
-84	المعطل الهذلي	3
-85	أحيحة بن الجلاح	3
-86	نهشل بن حري النهشلي	2
-87	مالك بن هريم الهمداني	2
-88	عياض بن كثير الضبي	2
-89	عوف بن الأحوص	2
-90	عمرو بن قعاس المرادي	2
-91	عبد قيس بن خفاف البرجمي	2
-92	عامر بن جوين الطائي	2
-93	سهم بن حنظلة	2
-94	سالم بن دارة	2
-95	زبان بن سيار	2
-96	راشد بن شهاب	2
-97	ذو الخرق الطهوي	2
-98	حجل بن نضلة	2
-99	جؤية بن ساعدة الإيادي	2
-100	بدر بن عامر الهذلي	2
-101	النمر بن قاسط	2
-102	المعقر بن حمار البارقي	2
-103	العجلاني	2
-104	الربيع بن أبي الحقيق اليهودي	2
-105	البريق الهذلي	2
-106	ورقة بن نوفل	1

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-107	ناشرة بن مالك	1
-108	موسى بن جابر الحنفي	1
-109	مامة الإيادي	1
-110	لقيط بن يعمر الايادي	1
-111	كعب بن مالك	1
-112	كعب الغنوي	1
-113	قيس بن زهير	1
-114	قيس بن الحدادية الخزاعي	1
-115	عمرو بن براقة	1
-116	عمرو بن الأهتم	1
-117	عمرو بن الإطنابة	1
-118	عبد يغوث الحارثي	1
-119	عبد مناف بن ربع الهذلي	1
-120	ضمرة بن ضمرة	1
-121	ضرار بن الخطاب الفهري	1
-122	ربيع بن زياد العبسي	1
-123	حذيفة بن أنس الهذلي	1
-124	الفند الزماني	1
-125	العوام بن شوذب	1
-126	الرخيم العبدي	1
-127	الربيع بن ضبع الفزاري	1
-128	الحارث بن ظالم المري	1
-129	الحارث بن دوس الإيادي	1
-130	الأجدع الهمداني	1
-131	أعشى باهلة	1
-132	أبو قلابه الهذلي	1
-133	أبو جراد الهذلي	1
	المجموع	2453

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

أوضح القضايا في الشعر المختار

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أوضح القضايا في الشعر المختار

امتزجت قرائح الشعراء مع البيئة التي حولهم ؛لتعكس تجاربهم الشعرية قضايا تداولتها نفوس الشعراء وشاعت على ألسنة الناس من بعدهم، ولتُوصل من بعدهم للعالم طبيعة المجتمع وقضاياه ومحاور نظرة الشعراء لحاضرهم ومستقبلهم ، وبالقياس إلى تعداد تصنيف الشعر وكثرة دوران موضوعات بعينها جعل الباحث يصنّف أوضح هذه القضايا ــ بمفارقة ابن قتيبة في نهجه في كتابه ــ على النحو التالي :

أولا : الحرب

جسّدت البيئة الحربية تنوُّعاً مادياً ومعنوياً عميقاً في تواصلها مع البيئات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ... إلخ نظراً للكمّ الكبير الذي برز في شعر الجاهليين حولها ، والشاعر الجاهلي في هذه البيئة يُبدي تقارباً في قبول البيئة الحربيّة أو رفضها ، وسبب هذين الموقفين الاحتكام لصوت القبيلة في قضايا الحرب ووجوبها على أبنائها الصُرَحاء للنزول إلى ساحة المعركة، أو الأخذ بالثأر ورفض الدية، أو الاحتكام لصوت العقل وإنهاء هذه الحروب القاسية التي زادتها بيئة الصحراء وشحُّ مواردها سوءاً ، فالقبائل قد استنزفتها حروبها الطويلة كالبسوس وداحس والغبراء[1] ، ولابد من حياة الراحة والأمن التي يهبط فيها السلام ويعلو صوته بين القبائل .

وبما أنّ الشاعر كان يقول المقطوعات أو القصائد أثناء اشتعال فتيل الحرب ، فلابد أن تُرهِص هذه الأشعار عن انغماس الشاعر إلى ما فوق أذنيه في هذه البيئة الحربية القاسية، فما تجده إلا مصوّراً السلاح وجيوش القبيلة والأعداء، والحالة النفسية التي تصاحبه والجنود من كلا الطرفين ، وما يرافق ذلك من مدح وذمّ للمظاهر المادية والمعنوية التي تُبرِز القوة والثبات والخشونة والصلابة والاستعلاء على جميع مظاهر الضعف الموجودة أو المحتملة .

ويبدأ الشاعر مصوّرا بارعاً لسلاحه الدفاعي والهجومي في آن معا ، ولعل في حِدَّة الأسلحة وقوّتها وجودة صنعها ضماناً لأثرها الأكيد على الأعداء في نفس الشاعر الثائرة على كل ما يهدد سلامته وما يبدّد حيوية الأمن في ذهنه في واقع جزيرة العرب وما حولها ، ويظهر هذا القلق النفسي في الأسلحة الدفاعية كالدروع والتروس والبيض وفي طريق استخدامها، يقول النابغة الذبياني:

---

[1] أحمد الحوفي ــ الحياة العربية من الشعر الجاهلي ص٢٣٠ وانظر الأيام التي كانت تقع ضمن حرب البسوس في الشعر والشعراء ج١ ص٢١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكلّ صموتٍ نَثْلَةٍ تُبَّعِيةٍ من نسجِ سُليمٍ كلَّ قضاءٍ وذائلِ [١]

فهذه الدروع التي تُلبَس على صدر المحارب صارت موضع إشادة بالفخر أو بالمدح لما تمتلك من مميّزات اللين والسعة التي تضمن حيوية أكبر للمحارب؛ لأنها من أجود الدروع صناعة، ويُلاحَظ اجتماع صوت القوّة والخشونة مع اللين والسعة يُحدّدها جميعها إجادة الصنع والإتقان ، فهذا ما يتمنّاه المقاتل في المعركة لتأكيد إبعاد قلقه النفسي الذي لا يُعلِن عنه في المعركة ؛ فيبقى طيّ الخفاء في لاوعي الشاعر، يقول زهير بن أبي سلمى مادحا رجلا محاربا :

حامي القَتيرِ على مُحافظةِ الـ جليٍّ أمينٌ مغيبُ الصدرِ[٢].

" يلبس الدرع في الحرب فتحمي عليه الجليّ : الأمر العظيم "[٣] فهذه الدروع عزّة لمن يلبسها، وإثبات ماديّ على قوّة القبيلة ؛لذا يَدِق وصفُ الشاعر لأطراف الدروع ومساميرها وكلاباتها وعرواتها التي تُربَط بأطراف الخُوَذ ؛ كي لا تقع أرضا مع حاملها فيأتيه الخوف والموت من كل مكان، يقول المنخّل اليشكري :

شَدُّوا قَوانِسَ بيضِهِمْ في كلِّ مُحْكَمَةِ القَتيرِ [٤]

وإذا كانت الدرع والخوذة المرحلة الدفاعية الملاصقة للجسم، فهي تكوّن خطّ الدفاع الأخطر، فالأولى أن تليها خطوط دفاع أخرى تؤكّد حماية الجسم وتصرفه عما يحيق به من قلق الهزيمة ؛ فيَلحَق بالإنسان الجاهلي عار الموت المعنوي أو المادي ، وهذا ما لا يريده الجاهلي من هزائم، لذا يدافع عن هذه النفس بالترس التي تناظر الدرع بصفات القوة والخشونة والصلابة والثبات، يقول أوس بن حجر في الترس :

---

[١] المعاني الكبير ج٢ ص١٠٣٢ الصموت: درع لينة إذا صبّت لم يكن لها صوت. ونثلة: واسعة وكذلك ذائل . قضاء : حديثه العهد بالعمل خشنة الملمس. سليم : يريد سليمان ــ عليه السلام [كذلك فسّرها ابن قتيبة]. انظر ديوان النابغة ص٢٧ .والسيوطي ــ المزهر ج٢ ص٤٢٤

[٢] المصدر نفسه ج٢ ص١٠٣٨ القتير : رؤوس مسامير الدرع

[٣] المصدر نفسه ج٢ ص١٠٣٨

[٤] المصدر نفسه ج٢ ص١٠٣٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذو بَقَرةٍ من صُنعِ يثرب مُقْفَلٍ وأسمرُ داناهُ الهِلاليُّ يعترُ[١]

فألفاظ " مقفل وأسمر والهلالي " توحي بصفات القوة والخشونة والصلابة والثبات، يدعمها الرمح الطويل الذي يُبعد عن صاحبه المِساس المُباشر مع الأعداء ، ويعطي فعاليّة في قتالهم ، ولكن لفظ " يعتر " يدلّ على اضطراب الحالة المادية والنفسية التي تخشى عار الموت بشكليه . فالأولى للمحارب أن يستمرّ في حماية قلقه الدائم من الموت بالترس القوية الصلبة، يقول طفيل الغنوي :

فلما فنيَ ما في الكنائنِ ضاربُوا إلى القرعِ مِن جلدِ الهِجانِ المُجوَّبِ [٢]

وهذه اللحظة القلقة التي تلَت نفاد السهام من الكنائن ، وجاءت لحظة احتدام عنيفة في الصراع وجها لوجه في هذه اللحظة تقترب لحظات الموت ، والشجاع مَن يقدّر كفاءة أسلحته وشجاعته؛ ليضمن نصراً مؤزّراً ومجدا خالدا تُقابله الهزيمة والعار والاندثار والموت .

وتأتي الأسلحة الهجومية في صورة أكثر غناء بعناصر الصوت والصورة والحركة واللون مما يلامس ــ بشكل أدقّ ــ شخصية الجاهلي في حال صراعه المتأزم داخل جوّ القتال، ويتداخل مع نزاعاته النفسية ليثبت وجوده ويخلع ما في نفسه من علامات القهر والقمع والقلق .

يتصدّر السيف قائمة اهتمام الشعراء بأسلحتهم، فأسبلوا عليه الأسماء والصفات والألوان والحركات والأصوات حتى أضحى معادلا موضوعيا لذات الشاعر الذي يبغي الفناء لأعدائه وتطهير أرضه من شرورهم بالسرعة والكفاءة والتحدّي الذي يخلّد صاحبه بمجد كبير . فكان السيف علامة التهديد بالفناء الأكيد، انظر ليزيد بن خذاق حين اختار السيف من بين الأسلحة ليوضّح صورة تهديد الحياة :

نعمانُ ، إنّكَ غادرٌ خَدِعٌ يُخفي ضميركَ غيرَ ما تُبدي
فإذا بدا لكَ نَحتُ أثْلَتِنا فعليكَ إن كنتَ ذا جدِ
و هَزَزْتَ سَيفَك كي تُحاربَنا فانظُر بِسيفِكَ مَن بهِ تُرْدي [٣]

---

[١] المعاني الكبير ج٢ ص١١٠٥ ذو بقرة : يعني ترسا من جلود البقر مقفل : ميبس الأسمر: الرمح الهلالي : الرمح المقوم للترس . يعتر: يضطرب انظر السيوطي ــ المزهر ج١ص٤١٠

[٢] المصدر نفسه ج٢ ص١١٠٦

[٣] الشعر والشعراء ج١ ص٣٠٢ . المفضلية رقم ٧٨ ص٥٩٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالمجد ــ لحظة التهديد باجتثاث أصل الكرامة والفخر في القبيلة ــ ركن من أولويّات الشاعر التي يجب المحافظة عليها بكل الوسائل المتاحة؛ لذا لجأ إلى التّهكُّم مِن المَهجُوّ ، والفخر بقوّة قبيلته ؛ أملا في بقائها وخلود ذكرها ، وجاءت صورة هزّ السيف وحركته إشارة صارخة لإعلان التهديد الكبير عبر حركة أساليب الإنشاء كالنداء والشرط والطلب للفت نظر القبيلة التي يتكلم عنها الشاعر بصوت الجماعة وضميرها (نا) في البيت الثاني والثالث فيضمن القوّة بصوت الجماعة في النظام القبلي ، يقول عنترة بن شداد مفتخرا بقبيلته لقتالها بالسيف :

عُلالَتُنا في كلِّ يومٍ كَريهةٍ بأسيافِنا والقرحُ لَمْ يَتَفرَّقِ [١]

فهذه الدُّربَة على استعمال الأسلحة والمُضارَبَة بالسيوف رغم الجراحات التي لم تبرأ بعد دليل قوة وصلابة وخشونة ورغبة في استمرار الصراع لحين النصر ، وهذا الاستمرار في الحركة والمضاربة بالسيوف باغت الأعداء ــالذين لابدّ من تطهير الأرض من شرورهم ــ فيضمن نقاء مجد قبيلة الشاعر ويخلّد ذكرهم بالفخر بهم، يقول ساعدة بن جؤيّة الهذلي :

وكُنّا أُناســاً أَنْطَقَتْنا سُيُوفُنا لنا في لقاء القوم حدٌّ وكوكبُ [٢]

وتبدو السيوف جزءا أساسيا من جسم الإنسان الجاهلي وزيه الذي يتشح به ، فكأنه يساهم في نسب قبيلة الشاعر ومجدها عبر المعادل الموضوعي للشاعر، يقول أبو كبير الهذلي :

مُستَشعِرا تحتَ الرداءِ إشاحةً عضباً غموضَ الحدّ غيرَ مفلَّلِ [٣]

فهذه حال الشاعر القوية الأكيدة القتل المؤثّرة في الأعداء السريعة الانقضاض وفي الوقت نفسه هي زينة في القبيلة تزيد ألق القبيلة رونقا ومجدا يقول عنترة بن شداد :

---

[١] المعاني الكبير ج٢ ص١٠٨٣ يقول ابن قتيبة شارحا البيت " أي أنا نعود إلى الحرب فنقاتل وجراحتنا لم تبرأ وذلك أنها إذا برأت تقشرت " .

[٢] المصدر نفسه ج٢ ص١٠٨٧ " أحسنا العمل بها فتكلمنا وافتخرنا "

[٣] المصدر نفسه ج٢ ص١٠٧١ عضب : قاطع ، مفلل : مكسر غموض الحد : يدخل الجسم إذا ضرب به .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَسَيفي كالعَقيقَةِ فهو كِمعيّ سلاحي لا أفلّ ولا فطارا [١]

فالسيف في رأي عنترة يؤكّد الذات التي تخشى الاندثار ، فالسيف سبيل الاستمرار بالحيوية والحياة ، كما هي المرأة و لكن تجربة عنترة بن شداد المريرة ومكانتَه الاجتماعية في قبيلته بسبب عبوديته ولونه فرفضته القبيلة وابنة عمه عبلة وهي رمز الخصوبة الإنسانية الأنثوية – التي توحي بها لفظ كمعي : ضجيعي – وهنا يبرز الحل بالسيف الذي يبادل المرأة في تعويض العشق ، فهذا العشق لابد أن يملأ مكانه بديل مميّز ، لذا يشرع عنترة بوصف مميّز مثاليّ لسيفه الذي يعبُر به الشاعر ظلام المعركة، وظلام الليل، وسواد لون بشرته بصورة اللمعان التي ترمز إلى العدل والحرية والتفاؤل في محيط الشاعر الاجتماعي فهو رمز الخصوبة الذكريّة الذي يفخر به الشاعر بصورة تماثل موضوع فخره بنفسه .[٢]

يقول الشنفرى مشبّها السيوف بأذناب البقر التي إذا عطشت البقر لوّحت بها لتوحي برغبتها الشديدة في الوصول إلى الماء رمز الحياة :

وهنّ كأذْنابِ الحَسيلِ صَواديا وقد نَهلتْ من الدّماء وعلّتِ [٣]

فهذه النشوة من السيف تُسكِت عطش الصعلكة بعيداً عن كل ما يقف أمام هذه السيوف التي وقفت معادلا موضوعيا صارخا أمام التشرُّد ، وإذا كان التشابه قائما في حالة عنترة والشنفرى في نبذ قومهما لهما وفي رغبتهما الأكيدة إثبات النفس أمام من حولهم فالسيف – أي الشاعر– يستطيع استرجاع حقّ ضائع أو الدفاعَ عن كرامة النفس والقبيلة بأجلى صور النقاء والطهارة، يقول أوس بن حجر :

إذا سُلَّ من غِمدٍ تأكّلَ أثَرُه على مِثلِ مِصحاةِ اللُّجينِ تأكّلا[٤]

أمّا القتال بالرمح فهو على طريق السيف سائر ، والمحاكاة تبرز في صورة مفعول السلاحين حيث تزيد قوة السلاح لحظة ما يمسكه الممدوح ، فهما من أجود الأنواع ، فالقبيلة تتفق على جلب هذه الأسلحة المميّزة أو صنعِها ما تستطيع لتضمن سرعة الانقضاض

---

[١] المعاني الكبير ج٢ ص١٠٨٣ العقيقة : لمع البرق كمعي : ضجيعي فطارا: متشققا لم يصقل .

[٢] مبروك المناعي : الحرب في شعر عنترة ص ص١٤٥-١٤٨

[٣] المعاني الكبير ج٢ ص١٠٨٣ انظر المفضلية ٢٠ ص٢٠٥

[٤] المعاني الكبير ج٢ ص١٠٨٧ الأثر : الفرند المصحاة : إناء الفضة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلوبة في حياة الصحراء التي تملؤها المفاجآت، وتزخر بالعداوة من مظاهر الطبيعة وحيوانتها من جهة ومن ساكن هذه الصحراء من جهة أخرى ، فيخضّب الشاعر رمحه بالسُمّ الزُعاف ليضمن المحافظة على حياته ومجده، يقول خداش بن زهير :

بينَ الأراكِ و بينَ النَّخلِ تَسْدَحُهُم زُرقُ الأسنَّةِ في أطرافِها شَبَمُ [١]

فمن بين مظاهر الحيوية كشجر الأراك والنخل ــ سر الحياة والبقاء والثبات والخلود في خشونة الصحراء ــ تتغيّر صورة الحياة إلى الموت السريع المشؤوم الذي يوحيه اللون الأزرق عند الجاهليين يمزجه في حرارة المعركة سمٌ بارد ينمُّ عن اهتمام شديد باكتمال تأثير هذا الرمح ، يقول أوس بن حجر :

معي مارنٌ لَدِنٌ يُخلي طريقَهُ سنانٌ كنبراسِ النّهاميّ مِنجلُ [٢]

ولعلّ تأثير هذا الرمح وما يعطيه لصاحبه من أنفة نظراً لحسن صناعته ، وقد جاءت الأنفة من خلال الجناس بين معنى مارن المتشَّعِب[٣] فالمارن الرمح اللينة والمارن الجزء اللين في منتصف الأنف ومنه تشتقّ الأنفة التي ترتبط بالطهارة والمجد والعدل من رمز اللمعان في النبراس، والسنان ويؤيّد هذه الأهميّة في المطاعنة بالرماح وفي تأكيد أثرها الكبير حتى أضحى الرمح رمز الحرب القوي ، يقول زهير بن أبي سلمى في معلقته مشجعا على الصلح بحكمة :

ومَن يعصِ أطرافَ الزّجاجِ فإنَّهُ يُطيع العوالي رُكِبَتْ كلَّ لَهْذَمِ [٤]

يقول ابن قتيبة مفسراً " إن الزُّجّ ليس يُطعَن به ، إنما الطعن بالسّنان فمَن أبى الصلح وهو

---

[١] المعاني الكبير ج٢ ص١٠٩٢ تسدحهم : تصرعهم شبم : سم بارد

[٢] المصدر نفسه ج٢ ص١٠٩٢ يقول ابن قتيبة مفسرا البيت " الرمح اللين يخلي طريقه فالسنان يقدمه فلا يقدر أحد يدنو منه ... فكأن السراج على منارة عملها النجار " النهامي : النجار منجل : واسع الجراح .

[٣] ابن منظور لسان العرب مادة مرن

[٤] المعاني الكبير ج٢ ص١٠٩٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الزُّجُّ أُعطيَ العوالي وفيها الطعنُ "[١]فهذا الامتثال لصوت العقل ــ بعد ما فعلت داحس والغبراء فعلها في قبائل عبس وذبيان وهدّدتْ حياتَهم ــ يطلقه الشاعر زهير بن أبي سلمى طلبا لحياة الاستقرار التي طالما حلمت القبائل بتحقيقها .

ويُقابل عمرو بن كلثوم زهيراً في موقفه في رسم الرمح ليدلّ على أنَفة قومه وصلابتهم وخشونتهم أمام التحديّات التي يقوم بها الملك عمرو بن هند للنيل من مجد قبيلته في قصّة تهديد كرامة والدة الشاعر؛ لتخدم أهل بيت الملك عمرو بن هند وما جرّت من بعد ذلك في مقتله [٢] يقول عمرو بن كلثوم :

فإن قناتَنا يا عمرو، أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا
إذا عضَّ الثِّقافُ بها اشْمَأزَّت و وَلَّتْهُ عَشَوْزَنَةً زَبُونا [٣]

فيظهر مجد قبيلة الشاعر وعِزّتُها عبر أجيال أكّدت ثبات القبيلة وخلودها رغم تغيُّر الأعداء وزوالهم بعد مجاهرتهم بالعداوة والبغضاء، إلا أن هذه المَنَعة والمجد لن تهون ولن تتغير كما هي القناة تنفُرُ وتأبى من شتّى محاولات الثَّقّاف لتصحيح شكلها كما يريد ، ولعلّ في هذا الانسجام بين الرمح وقوم الشاعر يستقصي جهد الشاعر ليعطي الحركة والاستمرار لمبدأ الأمان والشجاعة والقوة والخشونة والثبات أمام معطيات الفناء والإبادة وفي مثل هذا المعنى يقول عبيد بن الأبرص :

إنّا إذا عَضَّ الثّقا ف برأس صعدتنا لَوينا [٤]

ويستمرّ ضمير الجمع" نحن " ومشتقاته في نقل صوت الجماعة لحظة الفزعة للحرب وحماية النساء برمز الحيوية والبقاء والخلود، كما في قول عنترة بن شداد :

---

[١] المعاني الكبير ص١٠٩٤

[٢] انظر تفاصيل القصة في الشعر والشعراء ترجمة عمرو بن كلثوم ج١ ص ص١٥٧-١٥٨

[٣] المعاني الكبير ج٢ ص١٠٩٩ عشوزنة زبونا : ناقة سيئة الخلق

[٤] المصدر نفسه ج٢ ص١١٠٠ انظر الأصفهاني ــ الأغاني ج ٢٢ ص٨٦ ــ ٨٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونحنُ مَنَعْنا بالفُروق نساءَنَا نُطرّفُ عنها مُسْبلاتٍ غَواشِيا
ألمْ تَعْلَموا أنّ الأسِنَّةَ أحْرَزَت بقيتنا لو أن للدّهـــرِ باقيا [١]

فالرماح حصون القبيلة التي لا تتزلزل ، وعلى الرغم من تصريح عنترة بأن الدهـر لا يبقـى على أحد، إلا أنه في حشاشة نفسه يتوق إلى الخلود، وإلى امرأة من بين النساء اللواتي يرمـزن إلى سرّ الخصوبة الأنثوية ، و " عبلة الحسناء الحرة إنما هي بوابـة العـالم الحـر الأبيـض الجميل الذي كانت نفس عنترة تتحرق لولْجِهِ ، وتحلم به ، عبلة هي القبيلة والحيـاة الكريمـة فيها وعنترة لم تكن تهمُّه عبلة لذاتها بقدر ما كانت تهمّه لتأكيد ذاته، فالمهمّ فـي غزلـه بـها وحديثه عنها هو دخوله القبيلة وحصوله على مكان لائق مرموق فيها ، وما محاولاته الصعبـة اليائسة في نيلها إلا محاولات لإثبات وجوده الاجتماعي "[٢] ويجسد الرمح بهذا رمز التحـدي والقوة الفروسية والقدرة العظيمة التي يوحي بها السنان الحاد اللامـع علـى فـرض العـدل والتفاؤل بالسيادة والمجد لحسم الأمور، يقول ابن قتيبة في معرض ترجمته للبيد بن ربيعة :
" وملاعب الأسِنَّةِ هو عمُّ لبيد، واسمه عامر بن مالك وسمي "ملاعب الأسنة " لقول أوس بـن حجر:

ولاعبَ أطرافَ الأسِنَّة عامر فراحَ لهُ حظُّ الكتيبةِ أجمعُ

وكان ملاعب الأسنة أخذ أربعين مرباعا في الجاهلية ، ولما كبُر عامر واهتر تنـازع عـامر ابن الطفيل وعلقمة بن علاثة الجعفريان في الرئاسة حتى تنافرا إلى هرم بنقطبة بـن سـيار الفزاريّ "[٣] .

فكانت الرمح وسيلة لاستقرار بيئة ملاعب الأسنة الاقتصادية والاجتماعية والسياسـية ؛ مما أدخل الرمح في نسبه وشهرته التي تُخلّد ذكره بين الناس . ويقول الحـارث بـن حلـزة اليشكري في معلقته :

وثمانونَ من تميمٍ بأيدي هم رماح صُدورُهنّ القضاءُ [٤]

---

[١] المعاني الكبير ج٢ ص ص١٠٩٦-١٠٩٧ نطرف : نرد عنها، معبلات :رماح قد أسبلت للطعن،غواشيا: تغشى القوم جميعهم ، بقيتنا : كرما وأصلا ومجدا في النسب

[٢] مبروك المناعي ــ الحرب في شعر عنترة ص ص١٨٩-١٩٠ . انظر هاشم ياغي وآخرون تاريخ الأدب العربي ص٥٧

[٣] الشعر والشعراء ج١ ص ص٢٥١-٢٥٢ انظر الأصفهاني ــ الأغاني ج ١٥ ص ٣٥٠

[٤] المصدر نفسه ج١ ص ص٢٥١-٢٥٢ انظر الأصفهاني ــ الأغاني ج ١١ ص٤٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ففي أعتى لحظات التحدّي من بني تميم لقوم الشاعر فإن التصدّي والصمود أمام الموت الأكبر الذي دلّت عليه الرماح هو الطريق القويم للخلود؛ لأن قبيلة الشاعر يزداد مجدها بوقوفها أمام الأقوياء، ويُثبِت الشاعر للقبائل المعادية بأن قومه هم السّدّ الذي يُوقِف عداوة الناس عند حدّها ، ويأتي لفظ صدور كناية عن قضاء الحاجة في ريّ صدى العطشان للحرب والقتل، يقول عمرو بن قميئة مفتخرا :

وأرماحُنا ينهزْنَهم نهزَ جمَّة يعود عليهم وِردُنا ونَميحُها [١]

فالرماح سبب الموت الأكبر لمظاهر الحياة وهي الدماء التي شبهها الشاعر بماء البئر التي ينضحها المقاتلون من صدور أعدائهم فيذرونها جافة ميتة ، فكلّ الحيوية والثبات والصمود والخشونة أمام أيّ تحدٍ، وتصل درجة الاستعلاء إلى امتهان شجاعة الأعداء عندما استخدم الشاعر جمع القلة " أرماح " ليدل على قوة قبيلته وفروسية مقاتليها .

وفي هذا التصوير إعلاء في إيقاع الحماسة النفسية للمقاتلين، ودلالة على حسن الإدارة والتنظيم في القبلية لحظة الحرب [٢] ،ولضمان الأمن الإنساني عن طريق رمز الماء .[٣]

أما القوس وسهامه فهي من أشكال حيوية الفروسية في الحرب ، فالشاعر يفخر بجودة رميه من قوس اكتمل صنعها من خشب قوي ، وسهامه مريّشة نصالها حادة ، لها صوت حاد يجلب الموت معه ، فهي تذهب إلى صدور الأعداء دون اعوجاج في استقامة صلبها يقول ساعدة بن جؤية :

وصفراء من نبع كأن عدادها مزعزعة تلقى الثياب حطومُ
كحاشية المحذوف زيَّن لِيطَها من النبع أرزٌ حاشكٍ وكتومُ
وأحصنه ثجرُ الظّباة كأنّها إذا لم يغيبها الجفيرُ جحيمُ [٤]

---

[١] المعاني الكبير ج٢ ص١٠٩٧ ينهز : ينهش وينزع .جمة : بئر نميح : نستخرج الماء

[٢] انظر نوري حمودي القيسي شعر الحرب ص٣٨

[٣] انظر هاشم ياغي وآخرون تاريخ الأدب العربي ص٢٦

[٤] المعاني الكبير ج٢ ص١٠٧١ عدادها : صوتها حاشية طرف الثوب المحذوف : نوع من الثياب حواشيه حمر، أرز :شدة ، حاشك :حشكت بدرنها ، كتوم : ليس بها شق . أحصنه :منعه، ثجر الظباة : عراض النصال.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

طوراً يُجَرَّدُ للطِّعانِ وتارةً يأوي إلى حصدِ السِّهامِ عَرَمْرَمِ [١]

فهذه الفرس وفارسها في قلب واحد وعزيمة واحدة لا تضرّهم مطاعنة بالرماح أو رمي السهام ، فالفارس أدرى بالمعركة ومواضع القوة التي يميل بها ميزان الحرب ؛ لذا يسابق الفارس فرسه إلى القضاء على جميع أسلحة العدو ليُظهر تفوّق أسلحته التي تعني ذاته وتؤكّدها في كل لحظة من الحرب يقول عنترة :

وهل يَدري جُرَيَّةُ أنَّ نَبلي يكون جفيرَها البطلُ النجيدُ [٢]

فكنانة السهام هي بطون أعدائه الأبطال الذين خافهم الناس، فهو من فرط شجاعته لا يقف أقرانه من الأعداء إلا ليُقتَلوا بين يديه شرَّ قِتلة .

وتظهر الخيل من مظاهر الاستعداد المادي للحرب فهي تحمل الفارس وأسلحته الدفاعية والهجومية ، فكانت القيمة العظمى لها، وفي تجهيزها للحرب وتدريبها دليلاً على مدى استعداد القبيلة للحرب وقلقها على ضرورة استمرار قوة القبيلة ، واستمرار قدرتها على مواجهة التحديات بالغزو على ظهور الخيل ، ويؤيّد هذه الدربة ما ينتج من آثار واضحة للعيان على أجسام الخيل، يقول أبو دؤاد الإيادي :

قد تصعَلَكن في الربيع، وقد قرَّ ع جلدَ الفرائصِ الأقدامُ [٣]

يقول ابن قتيبة مفسّرا : " طارت أوبارهن ورققن في الربيع .... من الركض بأعقاب الرجال "[٤] ولكن لماذا في الربيع ؟! لأن الكلأ والماء موطن الحيوية يصبحان في أعلى درجات التنافس بين القبائل [٥] ،ويلازم هذا الحثّ على القتال رغبة تأكيد الذات واستعلائها على كل مظاهر التهديد والمعاناة التي لا تلاقي في نفس الشاعر إلا مشاعر الكراهية والعداوة والبغضاء المستمرة إلى حدّ موت العدو، يقول عامر بن الطفيل ــ ابن عم لبيد بن ربيعة ــ فارس قيس واصفا فرسه "المزنوق " :

---

[١] المعاني الكبير ج٢ ص١٠٥٤ يجرد : يأوي إلى جيش كثير القسي الحصد : المفتولة الأوتار

[٢] المصدر نفسه ج٢ ص١٠٥٤ الجفير : جعبة النبل النجيد : الشجاع انظر البحتري الحماسة ج١ ص١٦٢

[٣] المعاني الكبير ج١ ص١٠٢ الأصمعية ٦٥ ص ١٨٩

[٤] المعاني الكبير ج١ ص١٠٢

[٥] المصدر نفسه ج١ ص١٠٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقـــــد علم المزنوقُ أنّي أكُرُّه　　على جمعهم كرَّ المنيح المشهرِ
إذا ازورَّ من وقع السلاح زجرتُه　　وقلت له اربَعْ مقبلا غير مدبّرِ [١]

وهذا الحوار النفسي ينفذ إلى نفس الشاعر التي ترغب حياة الدَّعة، ولكن صراع الشاعر فـــي نظامه القبلي يفرض هذه الشجاعة العظيمة التي تصل إلى حدّ المغامرة، كما هي الحـــال فـــي قدح المنيح في الميسر، فالغنيمة الكبرى في هذه الحرب هي من نصيب الشاعر كما هي الربـح الوفير في الميسر . وهذا كلّه بسبب المغامرة التي تفرضها ــ أحيانـــا ــ طبيعـــة الصحـــراء وعشوائيتها في نزول المطر ونشوب الحرب وحدوث القتل، وهذه العشوائية تلزمها المغـــامرة ليبقى بصيص الأمل والاستعلاء موجوداً في كل الحالات الصعبة .

ولما كانت الخيل تحمل هذه القيمة الحربية ، صار الاهتمام بالخيل والفروسية من أبـــرز صفات الفارس الألمعيّ الذي يجيد القتال على ظهر الجواد، يقول ابن قتيبة راويًا خـــبرا لعبـــد الملك بن مروان قوله : " من أراد أن يتعلم ركوب الخيل فليروِ شعر طفيل "[٢] يقـــول طفيـــل الغنوي :

بخيلٍ إذا قيلَ: اركبُوا، لم يُقَل لهم　　عواويرُ يخشَون الرّدى أين نركبُ
ولكن يُجـــابُ المستغيث وخيلُهم　　عليها حمـــــاةٌ بالمنيّة تَضربُ [٣]

فمقاتلو القبيلة لا تنقصهم الفروسية والشجاعة التي تُلزِم أهلَها بإجابة الملهوف ، وتزيد الخيـــل هذه الصورة تكاملا فهي سوط الموت الذي يُضرَب به المعتدي فيموت للحظته . فاتّحدت بـــهذا الخيل وفرسانها في قلب واحد يوجّه المعركة لمساعدة المستغيث . ولهذه المكانـــة المرموقـــة التي تضطلع به الخيل يفخر الشعراء بأصالة خيولهم وقوتها على الاستمرار في الحرب فـــهي في السلم ذخر للسباق عليها وفي الحرب للغارة فـــ " تدبّر في نفسك أيّ أمريـــك أنجـــح "[٤] يقول المرقّش الأصغر مشبها الخيل بالرشا :

تراه بشكّات المُدَجَّج بعد مـــا　　تقطّـــع أقران المغيرةِ يجمحُ

---

[١] الشعر والشعراء ج١ ص ص٢٥١-٢٥٢ المفضلية ص٧٠٧ الأصمعية رقم ٧٧ ص ٢١٥

[٢] الشعر والشعراء ج١ ص٣٦٤

[٣] المصدر السابق ج١ ص٣٦٥

[٤] المعاني الكبير ج١ ص ص٤٢-٤٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحضّ على القتال :

يحاول الشعراء تصوير مثال للبطل القدوة الذي يتمنّون وجوده علـــى أرض المعركـــة فيقاتل لصالح القبيلة ، أو يصورون أبطالا من قبائلهم ماثلين للعيان ، يفضّلون غـــيرهم بتعـــدّد مهاراتهم الحربية التي يعزّ مثيلها[١] يقول زهير بن أبي سلمى مادحا :

يطعنُهم ما ارتمَوا حتى إذا اطّعنوا ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا [٢]

فمن مطاعنة بالرماح إلى طعان إلى مضاربة بالسيوف إلى تشابك بالأيدي والنفـــوس ، ومـــن يرى هذا البطل لابدّ ستدفعه نفسه ليتهالك في الهجوم نحو المجد الذي يميز الخبيث من الطيب، فإن لم يكن في نية هذا المقاتل ذلك المجد فالأولى إليه أن تُعزّز حيويته في لحظـــات العســـر بالمظاهر المادية يقول لقيط بن زرارة في يوم جبلة لمقاتلي قبيلته :

إن الشواء والنشيل والرُّغُفْ والقينة الحسناء والكأس الأُنُفْ
للضاربين الخيل والخيل قُطُفْ [٣]

وفي رسالة لقيط بن معمر الإيادي صورة تمور بالحركة في الحض على ضرورة التيقـــظ الكامل قبل الحرب من مَغبّة هجوم ستين ألفِ مقاتل فارسي بعد أن أغارت قبيلة الشاعر إيـــاد على أموال أنو شروان فأخذوها ، يقول لقيط :

سَلامٌ في الصحيفة من لَقيط إلى مَن بالجزيرة من إيادِ
بأن الليث كسرى قد أتـــاكم فلا يَشغلكمُ سوقُ النقـــادِ
أتـــــاكم منهمُ ستون ألفا يزجّون الكتائب كالجرادِ
على حنَق أتينكمُ ، فهـــذا أوانُ هلاككم كهلاك عادِ [٤]

---

(١)أدونيس ــ مقدمة للشعر العربي ص١٦

(٢) الشعر والشعراء ج١ ص٧٩ انظر الأصفهاني ــ الأغاني ج ٦ ص ١١٢ "فما ترك في المعنى فضلا لغيره "

(٣) الشعر والشعراء ج٢ ص٦٠٠ و انظر الأغاني ج١١ ص ١٤٨ صدره " وصفوةَ القِدر وتعجيلَ اللقَفْ "

(٤) الشعر والشعراء ج١ ص١٢٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعدَ تفرّقهم بالشام وبالجزيرة وبسوادها لاختلافهم، يدعوهم أن يرأبوا صدع الفرقة ، ويسترجعوا سالف قوّتهم بعد أن كانوا " أكثر نزار عددا وأحسنهم وجوها وأمدهم وأشدهم وأمنعهم وكانوا لَقَاحا لا يؤدّون خَراجاً "[١]، يقول لقيط لهم :

يا لهف نفسي، إن كانت أموركم ... شتى ، وأُبرِم أمر الناس فاجتمعا
أحرارُ فارس أبناء الملوك لهم ... من الجموع جموع تزدهي القلعا
فهم سِراع إليكم بين مُلتقط ... شوكا وآخر يجني الصلب والسلعا
هو الجلاء الذي تبقى مذلته ... إن طار طائركم يوما، وإن وقعا
قوموا قياما على أمشاط أرجلكم ... ثم أفزعوا قد ينال الأمن من فزعا
وقلّدوا أمركم ، لله دركمُ ... رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مُترَفا إنْ رخاء العيش ساعده ... ولا إذا عض مكروه به خشعا
ما زال يحلب درّ الدهر أشطره ... يكون متّبِعا طوراً ، ومتّبَعا
حتى استمرّت على شَزَر مريرتُه ... مستحكمَ السنّ لا قحماً ولا ضَرِعا [٢]

فأبرز تحذير لقيط بن معمر صورة حول مفهوم الحرب وبواعثها التي تغذيها وتُديمها نعرات حتى لو تجاوزت الحرب الدفاعية بوصفها واجباً إنسانياً إلى عدوان على مقدرات الآخرين ، فالبيئة الاقتصادية والاجتماعية فرضت كفاية يجب أن توفرها جماعة الفرسان في داخل القبيلة أو خارجها، وكأن العشوائية والعبث التي تلعبها بيئة الصحراء بساكنيها قد انقلبت حربا أو تعبئة لحرب جديدة .[٣]

ولعل نظام المقابلة بين فُرْس مجتمعين على قلب رجل واحد غايتهم المجد والاستعلاء على جميع مظاهر الضعف فهم كالقلاع في بقائها وخلودها وثباتها أمام جدب الصحراء وساكنيها، فلابد سيرجعون حقوقهم وبين قبيلة إياد التي تقسمت بعد حرب الفرس الأولى إلى الشام والجزيرة وسواد الجزيرة ، فالشاعر يخشى زوال كرامة القبيلة واستبداله بذلّ مقيم إذا ظل حالهم على ما هو عليه من الفرقة . وتأتي مقابلة أخرى في ضمن حاضر صعب ومستقبل قريب بحاجة إلى جد وخشونة تتغلب فيه قيادة واعية خشنة ثابتة قوية قادرة على جمع شتات

---

[١] الشعر والشعراء ج١ ص١٢٩

[٢] المصدر نفسه ج١ ص١٣٠

[٣] مصطفى ناصف ــ قراءة ثانية لشعرنا القديم ص ص٤٧-٤٨ وانظر أحمد الحوفي ــ الحياة العربية من الشعر الجاهلي ص٢٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القبيلة تحت راية واحدة لا تعوزها حسن الإدارة الاقتصادية والحربية في بيئتها الاجتماعيـــة؛ لتبقى قادرة على الفزعة والنجدة السريعة لحالهم الصعبة ، فالخشونة ومقاومـــة الرغبـــة فـــي الدّعة تركن إلى مجد القبيلة ، فبذهاب الخشونة يهرول الذلّ وتسارع أفواج العدو إلى اقتحـــام مجد القبيلة التليد .

ولعل في المقابلات التي أقامها الشاعر ضمن ثنائيات تقود إلى الخوف من الموت ، فلابـدّ من إجابة على هذا الهاجس الذي يلازم الشعراء في نظرهم للحرب وتوفر صور الموت فيها ، فسلامة بن جندل يقيمحواراً مع ابنته ليشكل صراعا داخليا في نفس الشاعر بين عاطفة الأبـوة و "عصبية " نداء القبيلة، يقول سلامة بن جندل :

تقول ابنتي : إن انطلاقَكَ واحداً ... إلى الروْعِ يوما تاركي لا أبا ليا
ذريني من الإشفاق أو قدّمي لنا ... من الحَدَثانِ والمنيَّة واقيـــــا
ستتْلفُ نفسي أو سأجمعُ هجمةً ... ترى ساقيها يألمان التراقيـا [1]

فنَبَذ الشاعر عاطفة الأبوّة جانبا عبر لفظ (ذريني) وكأنه ينتهي من مجالات التفكير في إيجـــاد أسباب تقف أمام جدب البدائل المتاحة له ، فلا مجال أمامه إلا خوض غمار المعارك بكل مـــا تحمله من احتمالات صعبة ونتائج وخيمة رسخت في وعي الشاعر ؛ لذا فـــالأولى الاســتعداد والتجهيز لكل طارئ وحضّ القبيلة على بذل كل ما تستطيع أمام أي تهديد ، فيرى سليك بـــن السلكة من تكذيب قومه له وسيلة لحضّهم على القتال ، بعد أن أخبرهم بتجهيز جيش بكر بـــن وائل ليغيروا على تميم، فقال سليك :

يكذبُني العَمران:عمرو بن جندب ... وعمرو بن سعد ،والمكذّبُ أكذبُ
ثكلتكما، إن لم أكن قـــد رأيتها ... كراديسَ يَهديها إلى الحيّ كوكبُ
كراديسَ فيها الحَوْفَزَان وحولـــه ... فوارس همّامٍ متى يَدْعُ يركبوا [2]

فكانت صعلكة السليك مانعاً من تصديق قومه له ، ولكنّ القبيلة رسخت في لا وعـــي الشـــاعر فتبقى صلات الدم بينه و بين قبيلته قوية رغم ما اكتنفها من صدوع ورفض لذلك الصعلوك.

---

[1] الشعر والشعراء ج١ ص١٩٣

[2] المصدر نفسه ج١ ص٢٨٤ انظر الأصفهاني ــ الأغاني ج٢٠ ص ٣٩٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتبقى لذلك الحض صورة البطل التي استوعبت مفـــهوم الحـــرب وبواعثـــها وفنونـــها ، وتعرف البطولة كيف تؤكّد ذات صاحبها وتجبُر ما انشق في وعيه وطبيعة عالمـــــه الداخلـــي والخارجي ، فلابد من صورة التفاؤل المشرقة التي تضمن الطهارة والعيش الكريم فـــي حيـــاة مثالية يخرج فيها الإنسان البطل العظيم من كل مظاهر التحدي والمعاناة إلى عـــالم المغـــامرة الذي ينتصر فيه[١] ، يقول الأعشى مادحا :

وفي كلّ عام أنتَ جاشمُ وقعةٍ ... تشدّ لأقصاها عزيمَ عَزائـــكا
مُورِّثةً مالاً وفي الأصل رفعةً ... لما ضاعَ فيها من قُروءِ نسائكا [٢]

وأنعم بها من صورة مدح تحضّ الجميع على القتال والاستمرار فيه ؛ نظرا للعواقب الحســـنة في طريق تكامل قوة القبيلة المعنوية والاقتصادية أمام القبائل الأخرى .

العداوة والبغضاء في الحرب :

تبرز العداوة والبغضاء للأعداء على صورتين :

الأولى : تهديد الأعداء وإماطةشرورهموتخويفهم من سرعة انقضاض تحيق بهم أومن جنود كالسيل الجارف لا يقف أمامهم شيء،أومن عدّة وعتاد أسلحة تسبب الموت مع تأكيد البغضاء والكراهية للأعداء .

الثانية : الديات والثأر . فالقبيلة القوية ترفض الدية وتطلب الثأر بجميع الوسائل المتاحة ، فتتوعد من قتل أحد أفرادها بالثأر منه ومن قبيلته . فالفرد من أبناء القبيلة له القيمة العظمى فيها .

تهديد الحيوية للأعداء وتخويفهم وكراهية أفراد قبيلتهم :

يقول الحصين بن الحُمام المُريّ :

نُفلّق هامـــاً من رجـــــالٍ أعزّةٍ ... علينا ،وهم كانوا أعقّ وأظلما
نُحارِبُهم نستودعُ البيض هامهم ... ويستودِعونا السمْهَريّ المقوّما

---

[١] أدونيس مقدمة للشعر العربي ص١٦

[٢] المعاني الكبير ج٢ ص٨٩٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلَسْنا على الأعقاب تدمي كلومُنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما
فلُوذوا بأدبار البيوت فإنّمـــــا يلوذ الذليل بالعزيز ليُعصَما [١]

فروح العدوان الذي وقع على الشاعر وقبيلته يبرز طغيان القوة والشر والكراهية مقابل الحـق والخير والحب للعيش بالأمن والسعادة ، وهذه المقابلة تفرض اختيار الأفضـل وهـو الحـل الإنساني البغيض بالحرب، وفيها يُظهِر الجاهليُّ حسبه ونسبه الخالد المجيد الـذي لا تضـيره أسلحة، ففي لحظة قيام الشاعر بروز قوة العدو ووضعها في ميزان القوة الذي لابـدّ سـيميل لحظّ الفخر بصالح قبيلته ، وستكون الخسارة مضاعفة للأعداء بالذل والهوان ، فرجال الأعـداء كالنساء لاذوا بأدبار البيوت ، والذل والحقد والكراهية وتمني الموت والألم هي أبرز المشـاعر التي يحاول الشاعر توزيعها على جميع أفراد قبيلة الأعداء .

ومهما حاول الشاعر إخفاء هذه البغضاء إلا أنها تظهر لحظة الانتقام بتمني الموت والـذلّ والهوان للأعداء ، وهذه الأيام سجال بينهم، يقول طفيل الغنوي :

فذوقوا كما ذُقنا يوم مَحْجر من الغيظ في أكبادنا والتحوُّب [٢]

لذا تكون هذه البغضاء علنية يزيدها التحدي أُوارا ، ونظراً لطبيعة الجاهلي في رغبته الأكيـدة في الاستعلاء على مظاهر الضعف والتحدي والصلابة والثبات والخشونة لتأكيد مجـد الـذات والجماعة، يقول النابغة الذبياني لممدوحه النعمان :

فمَن عَصـاك فعاقِبْه معاقبةً تنهى الظلومَ ولا تقعُدْ على ضَمَـدِ
إلا لمثلكَ أو مَن أنت سابقُه سَبْقَ الجواد إذا استولى على الأمدِ [٣]

ويبين الأعشى (ميمون بن قيس) هذه البغضاء والعداوة في ردّه الذي يهجو فيه مـن هـم أدنى من عشيرته منزلة ، واصفا حال المهجو بالضعف والذل والطيش والسفه لإعلانه العداوة أو وصف قبيلة الشاعر بضعف الحسب ، يقول الأعشى :

---

(٢) الشعر والشعراء ج ص٥٤٢ انظر المفضلية رقم ١٢ ص ١٠٥ ــ ١١٨ الأغاني ج ١٤ ص ١٠
(٢) المعاني الكبير ج١ ص٩٠ انظر الأغاني ج١٥ ص ٣٤٠
(٣) المصدر نفسه ج٢ ص١١٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ألسْتَ مُنتَهياً عن نحْتِ أثْلَتِنا ؟ ولسْتَ ضائرَها ما أطَّتِ الإبِلُ
كناطِحٍ صخرة يوماً ليفلقَها فلم يَضِرْها وأوْهى قرنَهُ الوعِلُ [١]

والنابغة الذبياني والأعشى يظهران روح القبيلة بالاستعلاء على الخصوم وصدّهم بالتي هي أحسن ، حيث استخدما الحكمة في ضوء خبرتهما الشخصية؛ لتعلن ضرورة التصرّف بعقلانية نحو ردود الأفعال لمن يعلنون العداوة فهم بالتأكيد سيخسرون عن طريق الحزم والعقاب في أبيات النابغة والتهكم اللاذع في أبيات الأعشى .

وتبدو ردود فعل الشعراء في غاية القوة لحظة إعلان قوم أو فرد لهم بالعداء خاصة، وتزيد هذه الحدة إذا تعلقت بوجود القبيلة أو تهديد أمنها ، وهنا تبرز الوظيفة الأساسية للشعر في إعلام الناس ــ وخاصة الأعداء ــ بوجود القبيلة على خريطة القوة في ذلك الزمان ، وقد ظهرت الوظيفة لحظة وجود الحارث بن حلزة اليشكري وعمرو بن كلثوم عند الملك عمرو ابن هند وإلقاء المعلقتين على مسمع منه[٢] لذا يقول الحارث بن حِلِّزَة كي لا تتغير مكانة قومه في حَظوتهم عند عمرو بن هند؛ كي لا يستمع للواشين :

أيُّها الناطق المرقِّش عنّا عند عمرو وهل لهذا بقاءُ
لا تخلنّا على غرّاتك إنا قبل ما قد وشى بنا الأعداءُ
وعلونا على الشناءة تتميـ نا حصون وعزّةٌ قعساءُ
قبل ما اليوم بيّضت بعيون الـ ناس فيها تغيّضٌ وإباءُ
وكأنّ المنون تُردي بنا أر عن جوناً ينْجاب عنه العماءُ
مكْفَهِرّاً على الحوادث لا تر توه للدهر مؤيّد صمّاءُ [٣]

يقول ابن قتيبة مفسرا : " (لا) تحسبنا جازعين لإغرائك الملك بنا لأنا قد مرّ بنا من سعاية الأعداء مالا نجزع معه من وشاتيك (لأنا) ارتفعنا على بغض الناس إيانا ، وغيظنا لهم بما يرَون من ثبات عزّنا ومكاننا عند الملك (ف) بيّضت هذه العزة العيون "[٤] وهذا المجد الخالد الذي توارثته الأجيال وثبتت قواعده، كما هو حال الجبل المتراكب فوق بعضه لا تضره

---

[١] المعاني الكبير ج٢ ص١١٣٢ انظر الأغاني ج ٩ ص ١٧٨

[٢] انظر تفاصيل الحادثة لفض النزاع بين بكر وتغلب في كتاب جورجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية ج١ ص ص١٠٩-١١١ .

[٣] المعاني الكبير ج٢ ص ص١١٣٧-١١٣٨ . مكفهر : متراكب فوق بعضه ، الرتو : النقصان .

[٤] المصدر نفسه ج٢ ص١١٣٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السنون في شيء حتى السحاب الرقيق لا يعلوه ، فمجدهم هو جبـــل الجبـال الممتنـــع علـــى الحوادث .

ويبيّن أوس بن حجر لبني عامر أن البغضاء والعدوان والحقد سيحيق بأصحابه عـــاجلا أم آجلا ، قال تعالى : " وتلكَ الأيّامُ نُداولُها بينَ النّاسِ "[١]

يقول أوس بن حجر :

هل سرّكم في جُمادى أن نُصالِحَكم ... إذا الشقاشِقُ معدولٌ بها الحنَكُ

أو ســـركم إذ لحقنا غير فخركم ... بأنكم بين ظهري دجلة السمكُ [٢]

يقول ابن قتيبة شارحا: " سرّكم أنا لكم سلم في هذا الوقت ، وذلك أن بني عامر لمـــا قتلـــوا بني تميم يوم جبلة قالوا : لم يبق من تميم إلا بقية فنغْزُهم فنستأصلهم ، فغزوهم يوم ذي نجـــب فقتلتهم تميم ... (فـــ) لحقنا ملحقا ليس كما تفخرون أي سركم أنكم سمك فتُقتَلوا "[٣]

و كانت أوضح صور البغضاء صور البغضاء والعداوة والحقد بـــرزت فـــي تشـــكيل المحاور التالية :

أولا : حكمة الشاعر وفخره بضبط انفعالاته أمام غضب الملوك والأمراء ومحاولته إثبات كذب الإشاعات والحرب النفسية التي ينشرها الحاسدون والواشون ؛ بإشارة الشاعر غير المباشرة من خلال ضرب الأمثلة وتحكيم العقل والاستعانة بالأدلة الصحيحة .

ثانيا : صورة تبادل قبيلة الشاعر أو ممدوحه العداوة بحيوية أكبر وإمكانية مقابلتها بمزيد من العداوة والبغضاء وسهولة تدمير حيوية الأعداء والاستمرار في هجائهم .

ثالثا : إظهار النظام القبلي وطبيعة الفزعة التي تبين دور المجموع والفرد في بناء القبيلة، رغم وجود جغرافية الجدب والصراع التي تخلفها الأيام مع ضرورة العناية بالناحية الاقتصادية المعتمدة على الكلأ .

الثأر :

٥٣٥١٣١

يحتل الفرد من أبناء القبيلة مكانة تحتم عليه المشاركة الدائمة في الحروب والغارات ،

---

[١] سورة آل عمران آية ١٤٠

[٢] المعاني الكبير ج٢ ص١١٤٥ " الشقاشق معدول بها الحنك: يريد بها إذ تهدون والشقشقة أبدا تكون من جانب "

[٣] المصدر نفسه ج٢ ص١١٤٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" وقد أدى ذلك إلى المشاعر العميقة بالخسارة حديث استنفدت المعارك والحروب الأعداء الكثيرة من رجالهم المحاربين ، وأدى ذلك ضمن ما أدى إلى الإعلاء من شأن الموت في ساحة الوغى ، وإلى ازدراء الهرب والموت في غير المعارك ، فأضاءت صفات الشجاعة في السلم بالكرم والصبر على قسوة الحياة والتماسك بجودة الرأي والقول في الأزمات والمحن ، وصار الثأر للمفقودين من القبيلة أمراً بالغ الأهمية في إعادة التوازن "[1]؛ لذا كان الاهتمام بقتل القاتل، ويتمنّى صاحب الثأر أن يتجاوز هذا القتل إلى جميع قبيلة المعتدي وحتى سيدها ليبرّد حمّى الإحساس بالعار، فتبقى القبيلة موتورة كما حدث بعد غزوة بدر للمشركين فالحزن والعصبية أهم روافد تغذية الثأر بذلك الشعور الذي ينسي الإنسان قيمة سفك الدماء .

ويأتي مثال امرئ القيس بعد مقتل أبيه وعمه وجده من قبل ، وجدّه المنقطع النظير للأخذ بثأرهم ــ بعد حياة الترف والدعة التي عاشها هذا الأمير ــ ونظرا لمكانة امرئ القيس الشعرية فقد ظهرت حوله أخبار وخرافات ساعد قدم عهد امرئ القيس في النيل من صورته الصحيحة أمام الباحثين[2] ولكن القصص والأخبار تشير إلى جِده في حشد الإمكانيات المتاحة للأخذ بثأره[3] لذا آثر البحث عدم التعرض لقصة أخذ امرئ القيس بثأره .

ولعل في قصة المرقش الأكبر ما يدل على هذا الشعور المتوقّد في النفس ليعلي من قيمة الفرد في قبيلته ؛ ففي قصة سفره مع أجيره الغُفَيليّ ومرضه في الطريق، فتركه أجيره ــ دون أن يقوم على مساعدته ــ في غار فأكلت السباع أنفه ، ويقال إنه كتب الأبيات التالية على خشب الرحل ، يقول فيها :

يا راكباً إمّا عرَضت فبلِّغَنْ ... أنس بن عمرو حيث كان وحَرْمَلا
لله دركما و درّ أبيكما ... إن أفلت الغُفْليّ حتى يُقتلا
مَن مُبلِغُ الفتيان أن مُرقّشا ... أضحى على الأصحاب عِبئاً مُثقَلا
ذهب السباعُ بأنفه فتركنه ... يَنْهشْنَ مِنه في القفار مجدّلا
وكأنما ترد السباع بشِلْوه ... إذ غاب جمع بني ضُبيعة منهلا [4]

---

[1] هاشم ياغي وآخرون ــ تاريخ الأدب العربي ص٢١ . انظر حول أهمية الثأر سعدي ضناوي ــ أثر الصحراء في الشعر إلى ص١٤١

[2] انظر شوقي ضيف ــ العصر الجاهلي ص ص٢٣٦-٢٤٣ فقد ساق آراء القدماء والمحدثين في هذه الصفحات ونقحها وبين حقيقة الصادق منها وانظر هاشم ياغي وآخرون ــ تاريخ الأدب الجاهلي ص ص٣٤-٣٥

[3] الشعر والشعراء ج١ ص ص٣٩-٤٠ و ص ص٩٢-٩٣

[4] المصدر نفسه ص١٣٩ الأجير من قبيلة غُفيلة .انظر المفضلية ص ٤٥٨ ــ ٤٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلما قرأها قومه ضربوا الغفيلي حتى أقرّ، وفي رواية أخرى فقتلوه[١]، ويلاحظ الشاعر في جانب اعتزازه بأن قبيلته إذا غابت ذل وهان لأن السباع أخذت رمز عزته وهو الأنف ، فلابد من الجماعة لتبقى قوّة القبيلة ظاهرة، وجاء بالسيدين من قبيلته حتى يحضر قدوة لأبناء القبيلة في الشجاعة والقوة والصبر في متابعة الأمر حتى الأخذ بالثأر بعزيمة الفتيان والشباب فهما آلة التغير السريعة التي تلحق بالمُذنِب وتوقع به الجزاء الذي يستحقه ، ولهذا لم تهدأ سريرة عنترة بن شداد إلا عندما تدور رحى الحرب على قبيلة ذبيان في حرب داحس والغبراء فتطحنها يداه ويضع رموز القوة والسيادة في رحى هذه المعركة ليقتلهما شرّ قِتلة، يقول عنترة ابن شداد :

ولقد خشيتُ بأن أموتَ ولم تَدُر ... للحرب دائرةٌ على ابني ضَمْضَمِ
الشاتمي عِرضي ولم أشتِمْهُما ... والناذرَين إذا لم ألْقَهُما دمي
إن يفعلا فلقد تركتُ أباهما ... جَزَرَ السِّباعِ و كلِّ نَسْرٍ قَشْعَمِ [٢]

فضمضم المُرّيّ ــ أبو حصين المرّيّ ــ وهرم بن ضمضم في قمة العصبية القبلية، وعنترة لا يوجد أمامه سوى التحدي والفخر بالمجد الذي صنعه بيده وهذا ما سيخلّد الاستعلاء على مظاهر الضعف التي يتوعده بها ابنا ضمضم في وصفه بالشجاعة والجرأة والثبات وحتى الخشونة في وصف نتائج هذا القتال المستعر بين الطرفين ، ولكن يبقى صوت الثأر أكبر محرّض على نسيان العقل والرحمة مقابل إلحاح العصبية، يقول دريد بن الصمة بعد أن ألحّت أمه بشعر لها على الاستمرار في طلب الثأر لأخيه عبد الله :

ثكلتِ دريداً إنْ أتَتْ لكِ شتوةٌ ... سوى هذه حتى تدور الدوائرُ
وشيب رأسي قبل حين مشيبه ... بكاؤك عبد الله، والقلب طائرُ
إذا أنا حاذرت المنية بعده ... فلا و ألَتْ نفسٌ عليها أُحاذِرُ [٣]

---

[١] الشعر والشعراء ج ١ ص١٣٨
[٢] المصدر نفسه ج ١ ص١٣٨
[٣] المصدر نفسه ج٢ ص٦٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فنَدْب أمّه الهِمم كلّ ساعة شيّب رأسه فهو همّ وعار يلازم صاحبه حتى يأخذ بثأره ويترشح من هذا الهم تلك القيمة الاجتماعية والاقتصادية والإدارية للفرد في قبيلته، وتدلّ على دور الفرد الإيجابي في مصلحة القبيلة كلها حتى لو كان ظالما لغيره، يقول طفيل الغنوي :

ولو أُخاصِم ذئباً في أكيلَتِه لجاءني جمعهم يسعى مع الذئب [١]

يقول ابن قتيبة موضّحا هذا المثل : " يعينون عليه وإن كان مظلوما والمثل يضرب بظلم الذئب "[٢] والجماعة هي أبرز ما في البيت فالعصبية تنصر الفرد من القبيلة ظالما كان أم مظلوماً .

ولكن الثأر قد لا يتم، فيلجأ المتخاصمون إلى الدية في حال تدخُّل المصلحين من القبائل، كما حدث عندما طالت حرب داحس والغبراء أو في حال تدخُّل ضعف القبيلة في طريق الأخذ بالثأر من القبيلة القوية فترضى ساعتها بأخذ الدية . وبين هاتين الحالين يتولّد صراع في نفوس الأحرار داخل قبيلة المقتول أو المُعتدى عليهم يقول الحارث بن حِلِّزة اليشكري في معلقته :

إن نبشْتُم ما بين ملحة فالصاقـ ـب فيه الأموات و الأحياءُ
أو نقشتم فالنقش يحشمه النا س وفيه السقام و الإبراءُ
أو سكتُّم عنّا فكنتُم كمن أغـ ـمض عيناً في جفنها إقذاءُ
أو منعتم ما تسألون فمَن حدّ ثتموه له علينا العلاءُ
فاتركوا الطيخَ والتعدّي و إمّا تتعاشوا ففي التّعاشي الداءُ

إلى أن يقول :

عننا باطلاً وظلماً كما تُعـ ـتر عن حَجرة الربيض الظباءُ [٣]

---

[١] المعاني الكبير ج١ ص٢٠٨

[٢] المصدر نفسه ج١ ص٢٠٨ وانظر قصة " أظلم من ذئب " في كتاب العسكري جمهرة الأمثال ج٢ ص٣٠ وانظر قصة " مستودع الذئب أظلم " في كتاب الميداني مجمع الأمثال ج١ ص٢٦٠

[٣] المعاني الكبير ج٢ ص ص١٠١٠-١٠١٢ يقول ابن قتيبة موضحا : "إن أثرتم ما بيننا وبينكم من الوقعات التي كانت بين (أسماء أمكنة) ظهر عليكم ما تكرهون من قتلى قتلناهم لم تدركوا بثأرهم ... (و) في هذا النبش والأمر الذي أثرتموه موتى قد نسوا ومات أثرهم لقدم عهدهم وفيه إحياء أي حديث أمرهم قد بقي ففي آثارهم تلك ما يعرف به فضلنا عليكم وادعاؤكم الباطل ... (ف) لا تأمنون إن استعصيتم أن يكون السقام فيكم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فتحمُّل الدية شأنٌ إداريٌ اقتصاديٌ يُدخل خبرة مجد جديد عن قوة القبيلة وطرق إملائها للحل الذي تريده على قبيلة المقتول ، وبالرغم من روح العصبية يُظهر الشاعر تحكيما للعقل ورفضا للظلم ويبيّن للناس رغبته في الحق دون تجنٍ على حق قبيلته أو تعدٍ على حقّ القبيلة الأخرى، يقول أبو كبير الهذلي معلياً من شأن هذه المنظومة القيمية في حال الحرب :

تَقَعُ السيوفُ على طوائفَ منهم فيُقام منهم قِيل مَن لم يَعدِلْ [١]

" إذا كان لنا فيهم دم قتلنا منهم حتى نستوي نحن وهم "[٢]

وقد يكون في فداء الأسرى ودفع ثمن حريتهم مجال فخر للأعداء الذين يتقصّدون أسر الفرسان والسادة والأثرياء طمعاً في إغناء بيئتهم الاقتصادية ورفع سويّة ثرواتهم ـ عنوان منعة القبيلة وعدم حاجتها لغيرها في أيام الحرب ـ يقول يزيد بن الصَعِق :

أُساوِر بيضَ الدارعين وأبتغي عقال المئين في الصباح وفي الدُهمِ [٣]

فمآرب هذا الفارس من قتاله واضحة فهو يغتنم اللحظة المناسبة للأخذ برؤوس الفرسان المثقلين بعدّة الحرب من بيض ودروع ، وهو ضامن أنه سيحوز فداء ثمينا مقابل إطلاق سراحهم بمئة من الإبل .

الجوار والحلف والإغاثة :

ارتبط الجوار والحلف والإغاثة بالبيئة الحربية والاجتماعية والاقتصادية على مبدأ القوة الحربية والعددية والاقتصادية مما يتيح العون الكبير في أسباب النصر المادية والمعنوية ، ويساعد في محافظة القبيلة على وجودها في مناطق الكلأ الخصبة وتكفل سيطرتها الاقتصادية التي تُشعرها بالأمن المعلوي ، وتأتي قصة قبيلة إياد وشاعرها أبي دواد " ويقال إنما أجاره

---

[١] المعاني الكبير ج٢ ص١٠١٧ الطوائف : الأيدي والأرجل .

[٢] المصدر نفسه ج٢ ص١٠١٧

[٣] المصدر نفسه ج٢ ص١٠٢٧ يقول ابن قتيبة : " وأصله أن يقول : فلان قيد مئة " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحارث بن همام المري ... وذلك أن قباذ سرّح جيشاً إلى إياد فيهم الحارث بن همام، فاستجار به قوم من إياد (حُذَاق) فيهم أبو دؤاد فأجارهم "[١] يقول طرفة بن العبد :

إنّي كَفانيَ مِن همٍّ همَمْتُ بهِ جار كجار الحُذَاقيِّ الذي انتَصفا [٢]

ويقول قيس بن زهير :

أُحاوِلُ ما أُحاول ثم آوي إلى جار كجار أبي دُؤادِ [٣]

فكان ديدن الواحد منهم في البحث الدائب عن جار حبله قوي شريف يحتمل حرمة الإجارة على عاتقه ويتكفّل بالحماية الأمنية والاقتصادية، يقول زهير بن أبي سلمى عندما استهجن على قوم نقضَهم ميثاق الجوار إلى مدّته :

هلا سألتَ بني الصيداء كلّهم بأيّ حبل جوارٍ كنتُ أمتسكُ
فلن يقولوا بحبلٍ واهنٍ خَلِقٍ لو كان قومك في أمثاله هلكوا [٤]

فعن طريق التحضيض على السؤال يؤكّد زهير بن أبي سلمى أن عهد الجوار الذي يتعلق به له أسبابه المتينة التي تخصّص الفضل لصاحب العهد في حين أن بني الصيداء تمسّكوا بحبل واهن ، وهذه الصورة أبدع برصفها زهير وتنقّل في أساليب الإنشاء من تحضيض واستفهام ونفي وتَمَنٍ أقنع فيها من يحاججه أنه ضعيف يغدر بالعهود الزائفة، وبهذه المقابلة بين حال الشاعر وقومه وما يستحقّون من فخر وبين المهجوّين وما يستحقّونه من ذلّ وهوان يشدّد الشاعر على احترام العهد والجوار، لذا كان الأجدر بالإنسان الجاهلي أن يجد له ركنا شريفا صادقا يلجأ إليه، يقول طفيل الغنوي :

---

[١] الشعر والشعراء ج١ ص١٦٢ " والحذاقي هو أبو دؤاد " انظر الأغاني ج ١٦ ص ٤٠٣

[٢] المصدر نفسه ج١ ص١٦٢ .

[٣] المصدر نفسه ج١ ص١٦٢ .

[٤] المعاني الكبير ج٢ ص١١٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكنتُ إذا أعلّقْتُ مكّنتُ في الذرى يدي فلا يلقى بجنبيّ مَصرعُ [١]

وفي الوقت ذاته كان الأشراف يفخرون بحماية جارهم وتكفلّهم رعايته والسهر على حمايـة مصالحه؛ لأنه طريق إلى زيادة مجدهم وفخر الشعراء بهم، يقول زهير بن أبي سلمى :

وجارُ البيت والرجلُ المنادي أمام البيت عقدُهما سواءُ
فلم أرَ معشراً أسَـروا هَدِيّـاً ولم أرَ جارَ بيتٍ يُستَباءُ
جوارٌ شاهدُ عـــــدلٍ عليكم و سيَّانِ الكفالةُ والتَّـلاءُ
بأيّ الجيرتين أجرتمـــــوهُ فلم يَصلح لكم إلا الأداءُ [٢]

وكأن زهير بن أبي سلمى يبيّن أحكام الإجارة وأشكالها وتقاليدها، فسواء الإجـارة كـانت باختيار القبيلة وعقدها بكفالة الشخص أم كانت باختيار المستجير نفسه مجاورة القبيلـة فكلتـا الحالين حقه واجب وعقده ساري المفعول فلا يصحّ إلا الاستمرار في إجارته ، وخوفـاً مـن تلاعب القبائل وضياع حقوق بعضها ولضمان البيئة الاجتماعية والاقتصادية والحربيـة كـان لابد من تدوين عقد الحلف والإجارة؛ لتبقى وثيقة تؤكد على ضمان الحقوق في ضوء معطيـات الصحراء وجفافها وتقلبات انتظام الكلأ منها ، يقول الحارث بن حِلّزة اليشكري فـي معلقتـه منوّها بضرورة هذا الالتزام :

فاعلموا أنّنا وإيـــــاكم فيـ ما اشترطنا يوم احتلفنا سواءُ
حذرَ الجَور والتعدّي وهلْ ينـ قض ما في المهارق الأهواءُ[٣]

ويقول قيس بن الخطيم :

لما غَـــــدَت غدوةً جباهُهم حنّتْ إلينا الأرحامُ والصحفُ [٤]

---

[١] المعاني الكبير ج٢ ص١١٢٤ يقول ابن قتيبة " وكنت إذا ما جاورت لم أكن أنازل إلا الذرى من القوم أي الأشراف " .

[٢] المصدر نفسه ج٢ ص١١٠٩ يقول ابن قتيبة معرفا الهدي : " الرجل ذو الحرمة وهو أن يأتي القوم يستجيرهم أو يأخذ منهم عهدا فهو هدي ما لم يجره فإذا أخذ العهد فهو حينئذ جار (أي) أن له حرمة كحرمة الهدي وهو الذي يهدي إلى البيت فلا يرد إلى البيت ولا يصاب بسوء " .

[٣] المصدر نفسه ج ٢ ص١١١٧ المهارق : الصحف المكتوبة يوم الحلف

[٤] المصدر نفسه ج٢ ص١١١٧ انظر تقاليد الحلف الألوسي ــ بلوغ الأرب ج٢ ص١٦٢ الأصمعية ٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالقبائل تخشى عاراً لا يزول بتخلّيها عن منظومة القيم التي تحلّها، وتأتي النساء والخوف من سبيهن والتعدي على حرماتهن تهديداً لشرف القبيلة التي تخون العهد ، لذا تبقى القبيلة القوية التي تحافظ على صورة شريفة أصيلة في الحفاظ على العهد وإجارة القبائل إجارة قوية باعثاً للفخر والإشادة بمناقب هذا المجد الخالد، يقول أبو دؤاد الإيادي :

ترى جارنا آمِنا وسطنا　　يروح بعقد وثيق السبب
إذا ما عقدنا له ذمةً　　شدَدْنا العناج وعقدَ الكرب [١]

الإشادة بالقوة والحيوية وسرعة الانقضاض في الحرب :

شكّلت قساوة بيئة الصحراء في نفوس قاطنيها انعاكسا ولدت معاناة تتفاقم إن لم يحسم أمرها جادٌ وسريعٌ في ردّ فعله مستعلٍ على نفسه المادية وحاجاتها ، فكيف بهذا الواقع الذي تتنافس فيه جميع القبائل على تأمين وسائل الإنتاج والسيطرة؛ لتخرج من هذه المرحلة إلى مرحلة حضارية أرقى تتوفر فيها وسائل الأمن والراحة ، وعليه تكون القوّة الممزوجة بالخشونة والصلابة والثبات في داخل الحرب مع تأمين قوّة الردّ السريعة التي توفّر عمقاً استراتيجياً نفسياً لمقاتلي القبيلة .

ولما كان الصراع في هذه الصورة الدائبة اعتنى سادة القبائل بمن يرفع قوى القبيلة ويضخّمها إلى حدّ إعلام القبائل بصورة مهيبة تملّ الأيدي بعدها من محاولة النيل من هذه القوة، يقول أوس بن حجر :

ترى الأرض منّا بالفضاء مريضةً　　مُعضّلةً منّا بجمعٍ عَرَمْرَمِ[٢]

فهذه الأرض الجرداء القاحلة سبب المعاناة الذي ارتكز في لاوعي الشاعر، فقبل أن يُهلِكَ هذا الجيش العدوّ سيهلك سبب جميع الحروب وهو جغرافية الجدب التي لاقت في داخل الشاعر الجاهلي جدباً في طبيعة الخيارات المتاحة أمامه، فلم يبقَ سوى الحرب.وكأن الشاعر خُلِق ليحارب ويحارب ، فالشاعر يتمنّى أن تتسحق الأرض تحت أرجل هذا الجيش وكذا العدوّ الذي سيصيبه مرض عضال يأتي على آخر جنوده. ويقول النابغة الذبياني :

---

[١] الشعر والشعراء ج١ ص١٦٣ انظر محمد عثمان علي ــ في أدب ما قبل الإسلام ص٤٥ حول فوائد العهد والإجارة الأخرى .

[٢] الشعر والشعراء ج١ ص١٣٥ والمعاني الكبير ج٢ ص٨٩٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لَجِبٌ يظلّ به الفضاءُ معضّلاً يدَعُ الإكامَ كأنهنّ صحاري[١]

وهذه الصورة ــ التي يستشرف بها الشاعر المستقبل الحربي ــ تولّب جنود الجيش من قبيلة الشاعر وتُثير الهلع في قلوب الأعداء الذين ينتظرون نزالهم في المعركة ، ومن كانت هذه أوصافهم لابدّ أن يكون الموت في أسلحتهم مقيماً ، والذل والخنوع والهزيمة لازماً لأعدائهم، يقول عمرو بن قميئة :

و مَلْمُومةٍ لا يخرِقُ الطرْفُ عَرضَها لها كوكبٌ فخمٌ شديدٌ وضوحُها
تَسير وتُزْجي السّـــمَ تحتَ لُبَانها كرية لمن فاجأتْه صَبوحُها[٢]

ويكثر الشعراء من دمج مظاهر الحيوية بمظاهر الاندثار والموت انعكاسا على طبيعة الصحراء، فبين الفيافي القاحلة تجد واحة ونخيلا وكلأ، ولكنّ الكثرة العددية باعث قوي للدلالة على التجهيز المميز الذي يسقي الأعداء السم صباحاً ، فكانت الحركة مفتاحاً للحلّ ولإملاء حلّ لطريق الصراع الطويل عبر لفظ "تسير" و"تزجي" يواكبه الحركة قوة و وجاهة وخشونة ومجداً لمعظم هذا الجيش فخم عظيم شديد لا ينفذ البصر من خَلَلِه وفي تمام حيويته فيسبّب الموت المحتّم للأعداء، يقول أوس بن حجر :

صبّحْنا بني عوف وأفناءَ عامر بصادقة جود من الماء والدّمِ [٣]

ولقد اختار الشعراء الصباح لما لعنصر المفاجأة وسرعة الانقضاض في النيل من الأعداء وتشتيت شملهم من آثار ايجابية في سرعة انتصارهم، ولكن قد يصوّر الشعراء مشي الكتيبة في وضح النهار وبعض المقاتلين لا يغطّون رؤوسهم رغم شدّة شمس الصحراء ولهيب رملها وهذه الخشونة تتزايد في تشبيه الكتيبة بالناقة السيئة الخلق (الضروس) يقول بشر بن أبي خازم :

---

[١] المعاني الكبير ج٢ ص٨٩٠

[٢] المصدر نفسه ج٢ ص٨٩٠

[٣] المصدر نفسه ج٢ ص٨٩٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عَطفْنا لهم عطْفَ الضَّروسِ مِن الملا بشهباء لا يمشي الضراءَ رَقيبُها [١]

فكان رقيب هذه الكتيبة مثال الحيوية والقوة والخشونة لبـــاقي جنـــده فـــي شـــكل المعـــادل الموضوعي عبر رمز الناقة التي يصعب قيادها رغم ما تتحمله من أذى ،.وكأن هذه الخشـــونة التي تفرضها الحرب تُلزم الإنسان الجاهلي التخلي عن كلّ مظاهر الدَّعَة من غطـــاء الـــرأس ومداعبة النساء الشابات الجميلات ، فكان البعد عنهن رغم الرغبة بهن يشكل حرماناً جديـــداً تضيفه الحرب في وعي الجاهلي؛ لذا كـــــان من الأفضل سرعة الانقضاض يقول الأعشى مادحا :

وفي كلّ عامٍ أنتَ جاشمُ وقعة تشدّ لأقصاها عزيمَ عزائكـــا
مورِّثة مالاً وفي الأصل رفعةً لما ضاع فيها من قروء نسائكا [٢]

ويقول النابغة الذبياني :

شُعب العُلاقيّات بين فُروجهم والمُحصَناتُ عَوازبُ الأطهارِ [٣]

ولعل هذا البعد يزداد بشكل ملحوظ عند الثأر لمقتل أحدهم وتبرز الخشونة بشكلٍ بيِّـــنٍ، يقـــول ربيع بن زياد العبسي مُستنكرا :

أفَبَعْد مقتلِ مالكِ بن زهير ترجو النساءُ عواقب الإطهارِ [٤]

ويحاول الشاعر إظهار الحرمان الجنسي للرجل والمرأة على حد سواء؛ لأن القصد من هذا الحرمان إظهار الخشونة والتقشُّف عن متع الحياة وليس عدم الرغبة في إنجاب الأولاد ؛ لأن

---

[١] المعاني الكبير ج٢ ص٨٩٣ الضروس: الناقة السيئة الخلق شهباء : كتيبة الضراء : المشي في الشمس حاسر الرأس . رقيب : قائد . انظر الأغاني ج ١١ ص ١٤٢

[٢] المصدر نفسه ج٢ ص٨٩٣ .

[٣] المصدر نفسه ج٢ ص٨٩٦

[٤] المصدر نفسه ج٢ ص٨٩٦ انظر البحتري ـــ ديوان الحماسة ج١ ص ٤١١ ـــ ٤١٢ و الأغاني ج ١٧ ص ١٩٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذلك يجرّ إلى ضعف القبيلة فتتناقص العدد مما تعير به القبائل الضعيفة، والشـــاعر هنـــا فـــي موضع للقوة والحيوية ــ المعنوية بالمجد والمادية الاقتصادية بالمال ــ وفي كل هذه الأحـــوال لابد من عقل صقلته التجارِب والمعرفة بالحروب وظروفها وصياغة الخطط التي تكفل حســـم المعركة بسرعة لضمان النصر المؤزّر بأقل عدد ممكن من الخسائر، يقول النابغة الذبياني :

يقودُهم النُعمانُ منه بمُحْصفٍ وكيدٍ يغُمُّ الخارِجيَّ مُناجِدِ [١]

تُرى هل يبقى بعد هذا الإحكام في تصوير الخشونة والقوة والمكر مكان للضعفاء الذين تأشّبت الأنياب لافتراسهم؟ يقول النابغة الذبياني :

لا تَزجُروا مُكْفَهِرّاً لا كِفاءَ له كالليل يخلِط أصراماً بأصرامِ [٢]

" إذ فزع الناس وخشُوا العدد (الذي لا مثل له أي جيش كبير) اجتمع الأصرام وهو القطـــع من الناس إلى الحي الأعظم ليعتزُوا به "[٣] .

الضربة والشجة والطعنة :

يحاول غير الشاعر ابتداع الوسيلة الأنجع في تهديد حيوية الأعداء داخـــل المعركـــة ، وفي الحرب النفسية تنافس الشعراء في مضاعفة معاناة الأعداء كي يكفّوا اليـــد التـــي تُمســـك بالسلاح تريد الحرب أو العدوان ، وهناك بالمقابل يد لا يقف أمامها حاجز لصدّها تلـــك اليـــد التي يفتنّ الشعراء بتصويرها ويُفْتَتون بقوتها، يقول المسيّب بن علس :

كَغَمَاغِمِ الثيرانِ بينهم ضربٌ يغمّض دونَهُ الحَدَقُ [٤]

---

[١] المعاني الكبير ج٢ ص٩١٥ محصف : عقل محكم ، الخارجي : العصامي ، مناجد : شديد النجدة

[٢] المصدر نفسه ج٢ ص٩١٦

[٣] المصدر نفسه ج٢ ص٩١٦ انظر البكري ــ معجم ما استعجم ج١ (المقدمة) ص٥٣ ،وانظر ابن رشيق ــ العمدة ج٢ ص١٩٤

[٤] المعاني الكبير ج٢ ص٩٧٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه الصورة المثالية لقوة الضرب بالسيوف يتمنّى كثيرٌ من الفرسان أن تصل قوتهم إلى هـذه القدوة التي يراها الشاعر بعينه أو يتمنّاها بين فرسان قبيلته ليتجاوز بهذه الأخيرة الشعراء مـن المبالغة في الوصف إلى ابتداع حلول لأشكال المعاناة داخل ساعة الوغى يقول الأعشى :

بمُشعلةٍ يَغشى الفِراشَ رِشاشُها يبيتُ لها ضوءٌ من النارِ جاحِمُ [١]

فقد تناثرت أشلاء الجريح من شدّة الضرب بالسيوف حتى أن دمه ملأ فِراشَـه ، والكتيبـة ـ التي منها هذا الجريح ـ تسهر طوال الليل موقدة النار والجمر يحرق معه أكبادهم حسرة علـى هذا المطعون الذي كثُر عُوّادُه ليلاً ، وما هذه الحرب التي تُتعب أصحابها وتُتـهك أجسـامهم الظمِئة إلى الراحة والدّعة، ولكن هيهات والليل سَهَرٌ على الجرحى ومداواة لشـقاء النـهار . ومع هذا يبدو التعطُّش لسفك الدماء وسبي النساء أو حتى قتلهن هدفاً ليزيد الأعداء هلعاً، يقـول الحارث بن حِلّزة اليشكري :

وصَبَيتِ مِن العَواتِكِ ما تنـ هاه إلا مبيضّةٌ رعلاءُ [٢]

" جمع (من) أمهات ملوك اليمن من كنده ... لا تكف هذا الجمع إلا ضربة توضح عن بيـاض العظم رعلاء يتدلى اللحم من جانبيها جميعا "[٣] .

ومهما بالغ الأعداء في تحمّل الأذى في ساحة الوغى فالحرب نابها أعصل يتوقّد منه الشَـرر، يقول أوس بن حجر :

وفارت بهم يوما إلى الليل قدرنا تصك حرابي الظهور وتدسعُ
فمـا جبنوا ـ أنا نشدّ عليهم ـ ولكن لقوا نارا تحشّ وتدفعُ[٤]

---

[١] المعاني الكبير ج٢ ص٩٧٩ مشعلة : ضربة جاحم : جمر

[٢] المصدر نفسه ج٢ ص٩٨٠

[٣] المصدر نفسه ج٢ ص٩٨٠

[٤] المعاني الكبير ج٢ ص ص١٠٠١-١٠٠٢ . تصك حرابي الظهور : تبرز عظام القفص الصدري تدسع : يبرز اللحم من شدة الضرب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومع إنصاف الشاعر عدوّه فقد أظهر شجاعة فرسان قبيلته وتعطّشهم للنيل من أعدائهم،ويكاد يمثّل بهم لحظة القتل؛ لأن الطعن في الظهر يعني الهزيمة ولحاق فلول الأعداء، فكان صبر الأعداء دون طائلة لاستثمار ما تبقى ما قوى خارت أمام هذه الضربات وأمثالها .

ثانياً : المرأة

بعد لحْظةِ عَبَثِ الزمان بشكل المكان وقهره وبثّ القلق ــ الذي يتعالى في ضمير الشاعر في لحظة التجلي الطللي ــ تسافر عناصر الخصب التي تشكّل المرأة الظاعنة أبرز مظاهر رحيل هذه الخصوبة التي يسعى الشاعر لثنيها عن المضي من المكان الذي ترعرع فيه، أو لوقف هذا الاستنزاف الذي يضيع دور الإنسان في التغيير ويجعله عبدا لتقلّبات الجفاف ونفاد الكلأ ويبعث القهر في البيئة الاجتماعية والاقتصادية والإدارية .[١]

ولما كان " اكتشاف الجانب الجمالي والوجداني من الحياة والتعبير عنه بالكلمات الموسقة . فالشاعر العظيم مكتشف في عالم الجمال والوجدان ؛ لأنه يرى الأحاسيس رؤية طازجة فنظرته ليست وليدة المنطق وإنما وليدة الحدس وأدواته هي الخيال الخصب "[٢] صار لابد أن ينظر إلى التجربة الفنية على أنها تجربة لا ورائية فالشاعر يعبر بمعاناة، والرؤية في تصوير أحلام المجتمع ومخاوفه وآماله[٣] لأنه يرى فيها مستقبله الآيل إلى تجاوز المصاعب .

ويجسد الشعراء المرأة بتفاعلاتها الاجتماعية وحركتها المادية في قبيلتها أو حركتها المعنوية في نفوس الشعراء لاستغلالها في تصوير وحدة موضوع القصيدة ، فهي وسيلة مساعدة في توصيل همّ الشاعر وتقريب الناس إلى ما يريد . يقول ابن قتيبة بعد أن يذكر تقاليد تقسيم القصيدة الجاهلية بعد ذكره للمقدمة الطللية : " ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ، ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه ، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه ، لأن التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، لما جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل ، وإلْف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب، وضارباً فيه بسهم حلال أو حرام ، فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه ، والاستماع له ، عقب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره وشكا النصب والسهر ..."[٤] .

وقد برزت المرأة في أطوار الحياة الاجتماعية محبوبةً، وزوجةً مدبّرة، وامرأة لائمة، وامرأة في ظروف الحرب .

---

[١] محمد النويهي ــ الشعر الجاهلي ج١ ص١٥٠ ياسين النصير ــ إشكالية المكان في النص الأدبي ص٢٢

[٢] صلاح عبد الصبور ــ قراءة جديدة لشعرنا القديم ص٢٠

[٣] المرجع السابق ص١٤٨

[٤] الشعر والشعراء ج١ ص٢١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المرأة المحبوبة :

طاف الشعراء بكعبة المرأة ونهلوا من ماء زمزمها ليرووا عطش الحركة النفسية ة التي تظهر بشكلها المادي عبر وصف حسي يُذيع فيه الشعراء مغامراتهم مع النساء، أو يبقى هذا الحب العذري الذي تشوبه الحرقة واللوعة في انتظار وصال المحبوب ، والشاعر الجاهلي بعد لحظة التجلي الطللي وما يرافقها من جدب في جغرافية المكان وتسلط الزمان لابد له أن ينظر إلى تأكيد هذه الذات ــ التي طالما عانت ــ وطريق الاستعلاء بإثبات الحيوية الفوّارة وبالشباب الذي لا ينتهي وبالتفوق على عناصر الضعف البشرية ــ التي منها المرأة ــ في الميزان الاجتماعي الذي يعلي من سلطة الرجل ، لذا كانت القدرة العاطفية في لفت نظر النساء وإغوائهن بقدرة جنسية وسيلة إثبات الرجولة القبلية ، ويأتي جسد المرأة المظهر الحسي الأولي الغني بأصناف الجمال المثالي الذي يريده الرجل، ويلبي حاجاته الحيوية في التكاثر العددي للقبيلة ، وتأكيد شبابه الذاتي أمام ذلك الزمان الذي طالما قهره وأقلق بيئته المكانية وصدّ الشاعر الجاهلي عن متابعة ألَق المجد الذي يريده في قبيلته .يقول امرؤ القيس في معلقته متدرّجا في الغزل إلى أن يصل إلى الغزل الصريح في مغامراته :

أفاطمُ مهلاً بعضَ هذا التدلُّل وإن كنتِ قد أزمعتِ صَرمي فاجملي[١]

ويقول بعدها :

وما ذرفتْ عيناكِ إلا لتضربي بسهمَيك في أعشار قلبٍ مقتّلِ [٢]

ثم تزداد الصورة وضوحا عندما يتذكر مغامراته السابقة بأماكن الجزيرة العربية المختلفة :

كدأبك مِن أمّ الحُويرثِ قبلها وجارتِها أمّ الرّباب بمأسَلِ
أغرّكِ مني أن حبّكِ قاتلي وأنّكِ مهما تأمري القلب يفعلِ [٣]

---

[١] الشعر والشعراء ج١ ص٦٤

[٢] المصدر نفسه ج١ ص٥٦

[٣] المصدر نفسه ج١ ص٦٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم تبدأ بشائر المغامرات في حياة هذا الأمير ــ الذي انغمس في ترف الحياة المادية ــ بالبروز بشكل بيّن في قصة " دارة جلجل " يقول امرؤ القيس :

ويومَ عقَرْتُ للعذارى مَطيَّتي ... فيا عجباً من رحلها المتحمّلِ
يظلّ العذارى يرتَمِيْنَ بِلَحمها ... وشحمٍ كهُدّاب الدمقْسِ المفتَّلِ
ويومَ دخلْتُ الخِدر خدر عنيزة ... فقالت : لكَ الويلاتُ إنّكَ مُرْجلي
تقول ــ وقد مالَ الغبيطُ بنا معاً ــ ... عقرتَ بعيري يا امرأ القيس فانزلِ
فقلتُ لها : سيري وأرخي زِمامَهُ ... ولا تُبعدينا مــن جناك المعلّلِ [1]

فبعد جغرافية الجدب المكاني والنفسي الذي لحق بالشاعر جاء حلم الشاعر بناءً على ذكرياته الجميلة، وأمله بمستقبل مشرق مع المرأة الحبيبة، بحيث يندمج معها كليا لينبتّ عن واقعه وتسمو روحه بين حاضر مؤلم مجدب (اللحظة الطللية) وبين مستقبل مثالي يَغْنى بالخصوبة (الغزل بالمرأة) وكيف لا ؟ وهو الأمير الذي بدا في المعلقة قادراً على قهر هذا الجدب، فناقته الأصيلة هي التي ذبحها للعذارى في داره جلجل، وقام على استكمال طبخها طاهون مَهرة ــ وليس طاهياً واحداً ــ وفرسه الأصيلة لا تتعب من الكرّ والفرّ فهي فرس ولا كباقي الأفراس، وصيد الشاعر يَعِنُّ له فجأة قطيع من الظباء، وصيده صيد ترف لا صيد قوت مثل الفقراء؛ لذا جاء نَفَس امرئ القيس في معلقته مشخّصاً حالته النفسية قبل قتل والده وهي حياة تقهر كل المصاعب وتوفّر كل ما يتوق له الإنسان الجاهلي .[2] وهذا ما يظهر جليّا في قصيدته : " ألا انعم صباحاً أيّها الطلل البالي " حيث يقول فيها واصفا المزيد من مغامراته :

سموتُ إليها بعد ما نام أهلها ... سموَّ حُباب الماء حالاً على حالِ
فقالت : سباك الله إنك فاضحي ... ألستَ ترى السُّمّار والناس أحوالي
فقلت : يمين الله ، أبرح قاعدا ... ولو قطّعوا رأسي لديكِ و أوصالي
حلفتُ لَها باللــهِ حِلفةَ فاجرٍ ... لَناموا وما إنْ من حديثٍ ولا صالي
فلما تنازعنا الحديث وأسمحت ... هصَرَتْ بِغُصنٍ ذي شماريخَ ميّالِ

---

[1] الشعر والشعراء ج١ ص٦٦

[2] يوسف اليوسف ــ مقالات في الشعر الجاهلي ص ص١٤٠-١٤٢ وص٣٢٦ وص ص١٦١-١٦٧ وانظر كتابه بحوث في المعلقات ص٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصِرنا إلى الحُسنى و رقّ كلامُنا ورُضت ، فذلّت ، صعبةً أيّ إذلالِ
فأصبحت معشوقاً، و أصبح بعلُها عليهِ القَتامُ سيِّئ الظـنّ والبال [١]

فمجتمع امرئ القيس يقدّس قرابة الدم، ولابدّ من قهر لهذا القلق والتحدّي بسرعة الانقضـاض وحسن التخفي والجرأة والفصاحة وحسن الإقناع لصوت تعود عدم الرفض في قبيلته ،[٢] وقـد " تكون المرأة بنظر الإنسان العادي هي أنوثة الجسد ، أما بنظر الفنان الشاعر ، فـهي جسـد الأنوثة ، نظرة الافتراس يجب أن تسبـق بكل تأكيد تلك النظرة الثانيـة التـي هـي نظـرة الانغراس "[٣] وكل هذا مخلوط بمشاعر الاستعلاء وتأكيد الذات من خلال الفروسية والوجاهـة لأنه يملك المال والشباب، يقول المنخل اليشكري :

ولقـد دخلتُ على الفتا ة الخدر في اليوم المطيـر
الكاعبِ الحسنـاءِ تر فل في الدِّمقْس وفي الحرير
فدفعتُهـا ، فتدافعَتْ مشي القطاة إلى الغدير
وعطفتُها، فتعطّفـتْ كتعطف الظبي الغريـر
فترتْ، وقالت : يا مُنخّـل مـا بجسمك من فتور
ما شفَّ جسمي غيرُ حبّـك فاهدئي عني و سـيري
ولقـدْ شربتُ من المُدا مة بالصغير و بالكبيـر
وسريت بالخيـل الإنا ث و بالمطهمة الذكـور
فـإذا سكرتُ فإنّني رب الخورنق و السـدير
وإذا صحـوتُ فإنّني رب الشويهة و البعيـر
يـا هندُ هل من نائل يا هند، للعـادي الأسيـر
وأحبّهـا، و تحبني ويحب ناقتها بعيـري [٤]

ويظهر الشاعران تكثيفا في ذكر عناصر الحياة والخصوبة التي يتمنّون ديمومتها مـن مثـل : خباك المعلل ، حباب الماء ، شماريخ ، غصن ، اليوم المطير ، القطاة إلى الغدير ، المدامـه ، الشويهة ، البعير ، الناقة ، وهـذا التفاؤل بعد القهر والقلق ولّد أملا لا ينتهي في

---

[١] الشعر والشعراء ج١ ص٧٤

[٢] يوسف اليوسف . بحوث في المعلقات ص١٧٣-١٧٦

[٣] قصي الحسيني ــ العمارة الفنية في شعر امرئ القيس ص٤٣

[٤] الشعر والشعراءج١ ص٣١٧-٣١٨ .انظر الأصمعية ١٤ ص ٦٠ ــ ٦١ ، الحماسة ج ١ ص ٢٠٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لاوعي الشاعر من امتلاء الجسم بالحيوية لحظة شرب الخمر ومداعبة النساء، فهذا الشباب الدائم في عالم الجدب يُلزِم الآنية في العلاقات العاطفية ويجعل الوقوف أمام الزمن شيئاً مستحيلاً، لذا فمن الأجدى استغلال لحظات الزمن بكل نَشوة ممكنةٍ [١] ، وقد تظهر هذه الحيوية في مجالس اللهو لحظة شرب الخمر والاستماع إلى القينات، يقول طرفة بن العبد :

رحيبُ قطابُ الجيب منها رقيقةٌ بجَسّ الندامى بضّةُ المتجرَّدِ
إذا نحن قلنا أسمعينا انبَرتْ لنا على رِسلِها مطروقةٌ لم تَشدَّدِ [٢]

ومن هذه الناحية الاجتماعية تظهر القينات وملابسهن ودورهن في الحياة الجاهلية مع مرافقة آلات الطرب ومجالس اللهو ، لذا كانت هذه المجالس طريقة للاستراحة في محطتها من عبء متطلّبات النظام القبلي نحو النساء من الأقارب، لذا كانت الأوصاف الجسدية مَبْهَجاً حيويا لا يقابله الشاعر إلا بالشباب الذين يسلُبون هذا المشاع رونقه، يقول الأعشى :

وَ فوهـا كأقاحيٍّ غذاهُ دائمُ الهَطْلِ
كما شيب براح با ردٍ من عسل النّحلِ [٣]

وهذه القُبلة وأثرها يزيد هذا الشباب الداخلي ألقا، يقول امرؤ القيس :

منابتُه مثلُ السدوسِ ولونُه كشوك السيَّال وهو عذبٌ يفيضُ [٤]

ولعل في هذا الفيض الزائد من الخير الذي ينبع من ريق هذه المحبوبة البعيدة في النسب يوصل إلى صورة الحلم الجميل والأمل الذي يقابله في واقع الحياة الصعب مع الزوجة وبنات العم وفي مكابدة الحالة الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية؛ لذا ارتبطت صورة الحلم والأمل بالطهر والتفاؤل والخصب والحيوية والحرية دون قيود تذكر.يقول امرؤ القيس في جمال عين المرأة ولمعانها :

---

[١] كمال أبو ديب ــ الرؤى المقنعة ص ص١٨٥-١٨٦

[٢] المعاني الكبير ج١ ص٤٧٠ رحيب : واسع . قطاب الجيب : يصف الشاعر شكل ثيابها من الأعلى.
بضة : رخصة ناعمة . مطروقة ضعيفة الصوت فيه طريقه

[٣] الشعر والشعراء ج١ ص١٥ .

[٤] المصدر نفسه ج١ ص٧٢ يقول ابن قتيبة: " وهو أول من شبه الثغر في لونه بشوك السيال فاتبعه الناس "

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نَظرَتْ إليكَ بعينِ جازِئَةٍ حوراءَ حانيةٍ على طفْلِ [١]

ويقول زهير بن أبي سلمى :

تنازَعَتْ المها شِبهاً ودُرَّ البحور وشاكهـــــت فيها الظباءُ
فأمّا ما فُوَيق العقدِ منها فمن أدماءَ مرتعُها الخلاءُ
وأمّا المقلتان فمن مهاةٍ وللدرَ الملاحةُ والصفاءُ [٢]

وكأن الشاعر يوصي زوجته لتكون على نمط هذا الحلم الجميل وتخلع ما تراكم فـي خبرتـها من مظاهر غير حضارية مع ضرورة شدّ أزر القبيلة بإنجاب البنين كما وصفها امرؤ القيـس " حانية على طفل " والشاعر يبحث عن حالة التوازن وتقليل مدى فاعلية الزمـن فـي بيئتـه المحيطة، ذلك التوازن الذي يضمن استقرار الناحية الاجتماعية والنفسية والاقتصاديـة مـهما تغيّرت الظروف التي تحيط بالشاعر ومن أبرزها خطراً الفقر والشيب والمرض الـذي يفقـد الشاعر حيويته ويبعد الحِسان عن طريقه، حتى يصل الأمر ببعض الشعراء أن يلـهج بوصف النساء و لعنهنّ بنكران العشير، يقول علقمة بن عبدة (الفحل) :

فـــإن تَسألوني بالنساءِ فإنّني بصير بأدواء النســـاء طبيبُ
إذا شاب رأسُ المرءِ أو قلّ مالُه فليس لـــه في وُدّهن نصيبُ
يُردن ثـراء المال حيث علمْنَه وشرخُ الشباب عندهنّ عجيبُ [٣]

ويقول طفيل الغنوي :

إن النســـاءَ كأشجارٍ نَبَتْنَ معًا منها المُرارُ و بعض النّبْتِ مأكولُ
إن النساءَ متى يُنْهَيْنَ عن خُلُق فإنّه واجبٌ لا بـــــدَّ مفعولُ

---

[١] الشعر والشعراء ج١ ص٧٢

[٢] المصدر نفسه ج١ ص٧٨

[٣] المصدر نفسه ج١ ص١٤٦ المفضلية ص ٧٧٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا يَنْصَرِفْنَ لرُشْدٍ إنْ دُعينَ لهُ وهنَّ بعدُ ملائيم مخاذيلُ [١]

فالشاعران جسّما المرأة ــ الزوجة في صورة فارقت رؤية الشاعر الجاهلي نحو المرأة المحبوبة ، وإذا كانت هذه المفارقة سببا في المعارضة للحلم فلابد من بيان الأخطاء التي يرغب الشاعر تجاوزها وتصحيحها ضمن الواقع الاجتماعي والاقتصادي الذي تعيشه المرأة، ويجب أن تضحي من أجله لتجاوز آثار الزمن و قحط المكان مسببة الفقر والشيب والمرض ولحظة الرحلة ــ الحركة المكانية داخل الجزيرة أو الحركة النفسية ــ هي الملمح الأساسي للحل ،[٢] كما أن الشاعرَين تحدثا عن النساء عامة بالصورة السلبية بينما كانت المرأة المحبوبة بين صدّها الشاعر وحبّها له دون التصريح أهم الملامح الإيجابية التي خصّ بها الشاعر هذه المحبوبة دون غيرها ، يقول عمرو بن قميئة :

أرى جارتي خفّتْ وخفَّ نصيحُها وحُبّ بها لولا الهوى و طموحُها
فبيني علـى نجمٍ سَنيحٍ نحوسه و أشأمُ طيرِ الزاجرين سنيحُها
فإن تشغبي فالشغب منك سجية إذا شيمتي لم يُؤْتَ منها سجيحُها
أقارض أقواما فأوفي بقرضهم و عَفّ إذا أبدى النفوسَ شحيحُها [٣]

فاستغل الشاعر صورة التشاؤم التي تتركها سوانح الطير في وعي الإنسان الجاهلي من تشاؤم [٤] وجعلها في مقام رحيل المحبوبة الذي يبثّ القهر والقلق والتشاؤم في نفس الشاعر .

ويبقى واقع القبيلة وحاجاتها إلى أبناء وأجيال تخدم مصالحها في الحروب وتزيد حسبها رفعة ، لذا استقرّت هذه الأهميّة للمرأة في القبيلة ،ويزيد هذه الأهمية ألقاً حفاظ النساء على شرف القبيلة ونقاء الأصل لتبقى دماء القبيلة الصّرفة تشدّ أزرها، يقول النابغة الذبياني في نساء سبين :

---

[١] الشعر والشعراء ج١ ص٣٦٤

[٢] محمد فؤاد نعناع ــ الجود والبخل في الشعر الجاهلي ص٥٤ .

[٣] الشعر والشعراء ج١ ص٢٩٢ .

[٤] يقول ابن قيم الجوزية ــ مفتاح السعادة ج١ ص٢٤٢ : " فقد كان العرب يزجرون الطير والوحش ويثيرونها فما تيامن منها سموه سانحا وما تياسر منها سموه بارحا " فكان قرار الرحيل بالسنيح فولّد شؤماً في نفس الشاعر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه الحيوية التي يفخر بها عنترة لأنّه رغم الحرب أصاب ملهم ما يحذرونه ، فلم يكونوا أصحاب مجد بل لبسهم العار، فقد تركوا الشدّ على أسنانهم ولِثّاتهم لأنّهم فقدوا ما يحرصون عليه ولم يستطيعوا ردّه .

ومن هنا دخلت صورة المرأة في حال الحرب وبيئتها ، حتى أنّها قامت بالتحريض عليها واستغلت مكانتها العالية في كونها شرف القبيلة وعنوان تجدّدها ومدّها بالأجيال ، وقد توزّعت صورة المرأة أمّا وزوجة وبنتا على اهتمام غير شاعر سواء كانت القبيلة محاربة أم محارَبة لإثبات شخصياتهم وتأكيد ذاتهم ومكانتهم في القبيلة، يقول عنترة بن شداد :

ومُرقَصةٍ رَدَدْتُ الخيلَ عَنها وقد همّت بإلقاء الزّمامِ [1]

فمن هول ما ترى هذه المرأة كادت تلقي بزمام البعير وتأخذه بيدها خوفا من شَرَرِ هذه الحرب الذي يتطاير هنا وهناك، ولا ملجأ من هذا إلا إلى عنترة الذي ردّ الأعداء عنها، فأسكَنَ جِنانَها وهدّأ من رَوْعها ، ولعلّ هذه الصورة تُسرّب غير قليل من كُره الحرب ورفضها من عناصر الخصوبة الأنثوية، والشاعر وقبيلته هم أهل المسؤولية وهم مَن سيستردّ الأمن والمجد للقبيلة ونسائها، يقول طفيل بن الغنوي مفتخرا :

وراكضةٍ ما تَستَجِنُّ بجُنَّةٍ بعيرَ حِلالٍ غادرتْهُ مُجَعْقَلِ
فقلتُ لها لما رأينا الذي بها من الشرّ : لا تستَوهلي وتأمّلي [2]

وهذه السرعة في الجري والرغبة في المحافظة على الحياة والخصوبة دون تهديد ألزمت هذه المرأة ترك مركب النساء (الحِلال)، ودون وعيٍ منها ركبتْ بعيراً لها عُرْياً من هَلَع الحرب فيقابلها الشاعر باسترداد الأمن وطرد الفزع والسبي ويقول لها : " تأمّلي وانظري ممن نحن "[3] نحن أهل المجد والشرف لؤمّن الناس من الفزع فهذه القبيلة تسترد الحقوق بصوت الجماعة، فقد كان للإنسان الجاهلي مُثُل عليا في حياته " يتمنّى كلّ منهم أن يترسّمها

---

[1] المعاني الكبير ج٢ ص٨٨٩

[2] المعاني الكبير ج٢ ص٨٨٩

[3] المصدر نفسه ج٢ ص٨٨٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويحقّقها، وتراها مبثوثة في ثنايا أغراضهم الشعرية ، ولكنْ كان الواحد منهم يجمعها في وصاياه التي ينصح بها أولاده باتباعها ليكون كلٌ منهم نموذجاً للمثل الأعلى للعرب "[١] .

فالمرأة الزوجة تنتظر أولادها وزوجها المقاتلين بالحرب، أو هي تخاف على نفسها من عار السبي لذا تستنجد أفراد عشيرتها لحمايتها ومَن معَها من نساء القبيلة، فلاقت بذلك صورة اندمجت في تجارب الشعراء لتلقى الحماية والرعاية من جهة أو تكون ملهى لرجال الأعداء يهدّدون بها أمجاد غيرهم ؛ ومن هنا بدأت أمارات العذل في ضوء هذا الدور الحيوي،فقد حاول غير شاعر جاهلي استكمال واقعية هذه الصورة للمرأة العاذلة وسبر البيئة العائلية من نواح اقتصادية وإدارية واجتماعية ،وهذه المكانة كانت دوراً مؤثّراً في صورة الزوج، يقول زهير بن أبي سلمى مادحا :

غدوتُ عليهِ غُدوةً فوجدتُهُ ... قُعوداً لديه بالصريمِ عواذلُهْ
يفدينَهُ طَوْراً وطوراً يَلُمْنَهُ ... وأعْيا فما يدرِينَ أين مخاتلُهْ [٢]

وكأنّ المرأة بحيويتها وخصوبتها الأنثوية ابتعدت عن أحلام تدور في ذهن الشاعر وطبيعة قلقه ونظرته إلى صورة عقلية واقعية أكثر إلحاحا لحل سريع دون تفريط بما بين اليدين من مصادر تصدّ المعاناة وتحافظ على رأب الصدع في أشكال المقاومة أمام عناصر الجدب المادية وعناصر القلق النفسية . فصورة الفقر ــ لحظة المغامرة بالمال ــ تعني تحدياً صارخاً لأسرتها التي تُديرها بطريقتها التي تُخفِت فيها صوت القبيلة وطبيعة الحياة الجماعية التي تحمي منظومة أخلاقية طالما تفاخر الرجال والشعراء الجاهليون في وصفها أو حتى للوصول إليها في صورتها المثالية ، وبين هذا المثال و بين ذلك الواقع جاءت صورة الإشادة بممدوح زهير . وقد تتطور هذه الثنائيات إلى صورة الخير والشر في نظرة الشاعر الإنسانية نحو عالمه الحيوي .[٣] وقد يستعير الشاعر لهذه المرأة العاذلة وعالمها شيئا من واقعها ليقابلها بقسوة الرفض مع اهتمامه الدائم بتعليل بواعثه المقنعة أمام نكران المرأة يقول عدي بن زيد العبادي :

أعاذلُ، ما يُدريكِ أنّ مَنيّتي ... إلى ساعةٍ في اليوم أو في ضُحى الغدِ

---

[١] علي الجندي ــ ملحق تاريخ الأدب الجاهلي ص٤٨

[٢] الشعر والشعراء ج١ ص٨٦

[٣] محمد فؤاد نعناع ــ الجود والبخل في الشعر الجاهلي ص٥٨ ص٦٥-٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذَريني فإنّي إنّمـــــا لي ما مضى ... أمامي من مالي إذا خَفَّ عُوَّدي
وَحَمَّتْ لميقـــــــــات إليَّ منيّتي ... وغُودِرْتُ قد وُسِّدْتُ أو لم أُوسَّدِ
وللوارثِ الباقي من المالِ ، فاتْرُكي ... عِتابي، فإنّي مصلحٌ غيرُ مُفسدِ [١]

وهذا التحدّي في البيئة الاقتصادية برز في قصص حاتم الطائي وزوجه العاذلة، يقول :

مهلاً نُوارُ اقلّي اللومَ و العَـذَلا ... ولا تقولي لشيء مـــــــات ما فعلا
ولا تقولي لمـــالٍ كنْتُ مُهلِكَهُ: ... مهلاً ، وإن كنتُ أُعطي الجنَّ والخَبَلا
لا تعذليني في مالٍ وصلتُ بهِ ... رَحِماً وخيرُ سبيلِ المالِ ما وَصَلا [٢]

وما صورة هذا الحوار النفسي أو الفعلي إلا تعبير عن إثبات لوجود وتأكيد للـذّات المسـتعلية على جميع مظاهر الضعف والمعاناة ؛ مما حدا بالشاعر إطالة النقاش مع عاذلته التـي تحتـجّ برأي ملموس في حياة الشاعر اليومية على مستوى أسرته وقبيلته لغاية صنع القرار وإمـــلاء دور جديد للزوجة في حياة أسرتها وقبيلتها قدر المستطاع، يقول تأبط شرا :

يا مَـــــن لِعذّالةٍ خذّالة نَشِبِ ... خرّقْتَ باللوم جلدي أيَّ تَخْراقِ
تقول : أهلكْتَ مالاً لو ظَنَنْتَ بهِ ... من ثوب عزٍّ ومن بزٍّ وأعلاقِ
سدِّد خلالَك من مـــــالٍ تُجَمِّعُهُ ... حتى تلاقي مـــا كلُّ امرئ لاقِ
عاذلَتا إنّ بعض اللـــوم مَعْنَفَةٌ ... وهل متـــــاعٌ وإنْ أبْقَيْتُهُ باقِ
إنّي زعيمٌ إن لـــم تتركي عَذَلي ... أن يسألَ الحيُّ عنّي أهلَ آفاقِ
أن يسألِ الحيُّ عني أهلَ مَعرفةٍ ... فـــــلا يُخبِّرْهُمُ عن ثابتٍ لاقِ
لَتقرَعِنَّ عليَّ السنَّ مِـــــن ندمٍ ... إذا تذكّرتِ يوماً بعضَ أخلاقي [٣]

فالفراغ الذي أحدثته الصعلكة في نفس تأبّط شراً ومحاولته تأكيد الذات أمام زوجتـــه بعـد أن ابتعد الطريق به عن قبيلته، والتزامه الصريح بروح الجماعة فيه بدا سلوك الغربة [٤]

---

[١] الشعر والشعراء ج١ ص١٥١

[٢] المصدر نفسه ج١ ص١٦٧ .

[٣] الشعر والشعراء ج١ ص٢٣٠ . ناشب : مستمر على اللوم ، المفضلية رقم ١ ص ١٨ــ ١٩

[٤] انظر عبد الرزاق الخشروم ــ الغربة في الشعر الجاهلي ص٢٩٦-٢٩٧ وتظهر الغربة بشكل مميز لحظة التفكير بعبثية لحاق الموت ببني آدم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يفرض نفسه في حياته الجماعية مع قبيلته ومن خشيته أن يتسرّب ذلك السلوك إلى حياته الأسرية مع زوجة بدت في صورة لوم كبيرة حول الكفاية الاقتصادية التي يجب أن تصل إليها أسرتها مع ذخر يعوّض النقص في كفالة القبيلة لجميع أفرادها ، ولما " انتشر الفقر والبؤس فيهم ولم يكن فيهم من الأغنياء إلا قلة ، وكانت الغالبية فقراء "[١] صار من الأولى ارتفاع صوت الشجار والتهديد من الزوجين للوصول إلى برّ الأمان الاقتصادي في نظر كل منهما، يقول عنترة بن شداد في قيامه على مهره والعناية بغبوقه حليب الإبل :

لا تذكُري مُهري وما أبليتُهُ ... فيكون جلدُكِ مثلَ جلْد الأجرَبِ
إن الغبوقَ له وأنتِ مَسوءةٌ ... فتأوّهي ما شئْتِ ثمّ تحوّبي [٢]

ويُظهر غير الشاعر صفات الزوجات في حال اللوم فهُن مُسرِفاتٌ في الإلحاح نلكرات للعشير ملتزمات بالإصرار على موقف دون رجوع عنه، مع تعزيرهنّ لجميع الاحتمالات التي تؤيد رأيهنّ دون مراعاة حالة الزوج والتحديات التي يفرضها إثبات وجوده في عالمه الاجتماعي الأكبر (القبيلة) من خلال عادات الكرم والحرب وشرب الخمر، يقول حاتم الطائي :

وعاذلةٍ هبّت بليلٍ تلومُني ... وقد غاب عَيّوقُ الثّريّا فعرّدا [٣]

" لأنه يسكر بالعشيّ فإذا صحا من سُكره بالليل لامتْه "[٤] ويقول عنترة بن شداد :

بكرتْ تُخوّفُني الحتوفَ كأنّني ... أصبحتُ عن عَرَضِ الحُتوفِ بمعزلِ
فأجبتُها: إنّ المنيّةَ منهلٌ ... لابدّ أن أسقى بذاك المنهلِ
فأقْني حياءَك لا أبا لك واعلَمي ... أنّي امرؤ سأموتُ إن لم أُقتلِ
إنّ المنيّةَ لو تمثّلُ مُثّلتْ ... مِثلي إذا نزلوا بِضَنْكِ المنزلِ [٥]

---

[١] علي الجندي ــ تاريخ الأدب الجاهلي ج١ ص٦٨
[٢] المعاني الكبير ج١ ص٨٩ وانظر بيت طفيل الغنوي ص٩٠
[٣] المصدر نفسه ج ١ ص٤٣٠ عرّد : فرّ
[٤] المصدر نفسه ج١ ص٤٣٠
[٥] الشعر والشعراء ج١ ص ١٧٤ ، الأغاني ج ٨ ص ٢٤٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن رؤية الشاعر تتلخّص في الحركة والرحيل رغم ما يواجهه من مصاعبَ حربٍ وألمٍ ونَصَبٍ يزيده الهمُّ المثقل بالحصار ، وهذه الحواجز لابد أن تتكسّر من ضمير الشاعر وفكره عبر الحركة والحرب اللذين ينزعان هذه التراكمات المتعلقة بالمكان السابق إلى مكان جديد ينتظر فيه الشاعر ذلك المجهول، وإيمان " الشاعر الجاهلي بأن الموت حق وان كل إنسان لابدّ وارده ، وليست العبرة هنا بمعرفة الموت وإنما الإيمان بأحقيّته "[١] فالموت كأس تدور على الجميع ومن لم يُقتَل لابدّ سيموت ولا أزليّة لأحد أمام هذا الكمّ الهائل من أسباب الموت وجدب الصحراء ، ولكن في أبيات سلامة بن جندل وحواره مع ابنته اللائمة تجسيدا واضحا لهذه الرؤية بشكلها الممتزج مع عاطفة الأبوّة المقدسة، يقول سلامة :

تقول ابنتي : إن انطلاقَك واحداً ... إلى الرّوعِ يوماً تاركي لا أبا لِيَا
ذريني من الإشفاقِ أو قدّمي لنا ... من الحَدَثانِ والمنيَّةِ واقيـــا
ستتْلفُ نفسي أوْ سأجمعُ هَجمةً ... ترى ساقيَيْها بألمانِ التّراقيا [٢]

وكأن كلمة "ذريني" تعلن موقفا للشاعر لا يستطيع فيه تغييرَ دلائلِ الهلعِ والسهر والقلق والقهر الذي يتأزّم ، ومهما حاول الشاعر إشغال فكره بحُمّى الحرب إلا أن صورة ابنته لا تغادر أعماقه عبر طلب بديل يغني الشاعر عن سلوك درب الحرب ، وكأن الشاعر يستطلع مستقبلا لم يتّضح فيه فكره نحو المجهول، وتبقى الحركة والرحيل طريقاً نحو التغيير المنشود حتى لو كان غير واضح المعالم .[٣]

ثالثا : الحكمة ومساربها في القيم الجاهلية :

تعدّدتْ صور الالتئام الاجتماعي في النظام القبلي ليبقى مجتمع القبيلة قادراً على حماية المجتمع من داخله، ولعل " تنافس القبائل في السيادة والعزّة والطموح جعل الفرد منهم محبّا للزّهو ميالاً إلى المباهاة وحب الظهور، فشاع لديهم إكبار الجميل وصنع المعروف ومدّ يد العون والمساعدة للمحتاجين "[٤] .

---

[١] عبد الرزاق الحشروم ــ الغربة في الشعر الجاهلي ص٢٩٧

[٢] الشعر والشعراء ج١ ص١٩٣

[٣] يقول عبد القادر الرباعي ــ الصورة الفنية في النقد الشعري ص١٦٠ " استطاع الإنسان بثقافته العقلية والعملية أن يتغلب على الطبيعة ليمنح نفسه فرصة ثابتة لاستمرار الوجود "

[٤] علي الجندي ــ ملحق تاريخ الأدب الجاهلي ص٤٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان للجاهليّين " مثلٌ عليا في حياتهم ، يتمنّى كلُّ منهم أن يترسّمَها ويحقّقَها ، وتراها مبثوثة في ثنايا أغراضهم الشعرية ، ولكن كان الواحد منهم يجمعها في وصاياه التي ينصح أولاده باتّباعها ، ليكون كلٌّ منهم نموذجا للمثل الأعلى للعرب " [١] التي تجعل من صراع الخير والشر من أبرز صور التحدي في النفس البشرية [٢] عبر الخبرة الاجتماعية والاقتصادية والإدارية التي تُغني التجربة الإنسانية وتشكّل المجتمع في صورة أرقى عبر نضوج أفراد القبيلة على نحو أفضل . وسارت هذه الحكمة في مسارب عدّة صاغتها قساوة البيئة الاقتصادية والصحراوية والاجتماعية ومن هذه المسارب :

أوّلا : الحذر والمعاملة بالمثل تجاه الطامعين وعديمي العهد ، فهؤلاء غير مكشوفي الجانب مما يؤلّب ذهن الإنسان الجاهلي وضميره نحو تصرُّف حكيم في ظلّ سرعة الانقضاض التي توفرها بيئة الصحراء المادية في حياة الجاهلي ، وهذه المصاعب تجسّد حاجة ماسّة إلى الفِراسة وحُسن التدبير في إدارته الدائمة لموارده الاقتصادية وتؤكّد رجاحة عقله وقوّته في ميزان القوى، يقول عَدِيّ بن زيد العِبادي :

إذا ما امرؤ لم يرجُ مِنكَ هوادةً ... فلا ترجُها منه ولا دفْعَ مَشهدِ
وعدّ سواهُ القولَ واعلمْ بأنّه ... متى ما يَبِنْ في اليوم يصرمْك في غدِ
إذا أنتَ فاكهتَ الرّجالَ فلا تَلِغْ ... و قلْ مثلَ ما قالوا ، ولا تتزَنّدِ
وأبدتْ لي الأيّامُ والدهرُ أنّه ... ــ ولو حبّ ــ مَن لا يُصلِحِ المالَ يُفسدِ [٣]

ففي عبارة " وعدّ سواه القول " صرفٌ للنظر عن معالجة شؤون يحسُن الابتعاد عنها والحذر ممن تسوّل له نفسه استغلال مظاهر الحيوية ــ الكرم بشكل خاص ــ لدى المخاطب (وعي الإنسان الجاهلي) كي يبقى مبتعدا عن التناقض أو الثنائية وخاصة في إصلاح المال وإنفاقه في وجوهه دون إفساد للناحية الاقتصادية .

ثانيا : تحكيم العقل والحلم والتّعالي عن زلاّت الأصدقاء ، فالناس خطّاؤون ، ومَن أراد

---

[١] علي الجندي ــ ملحق تاريخ الأدب الجاهلي ص٤٨

[٢] إيليا الحاوي في النقد الأدبي ج١ ص٩١

[٣] المعاني الكبير ج٣ ص١٢٦١ جمهرة أشعار العرب المجمهرة الثانية يقول ابن قتيبة مفسرا البيت الأول : " إذا لم يضعك الرجل موضع رجاء هوادة منك وموضع دفع عنه فلا ترج أنت أيضا ذلك منه ؛ فإنه يضعك من نفعه لك بحيث يرجوه من نفعك له " . الهوادة : الرخصة واللين . تلغ : تجزع تتنزند : تغضب بسرعة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

روح الجماعة فلابدّ من اجتياز التحديات وتحمل الآثار الجانبية أملا في بقاء بناء القبيلة المتماسك يقول النابغة الذبياني :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلُمْهُ على شَعَثٍ أيُّ الرجالِ المهذبُ [١]

ويقول المرقش الأكبر :

يا صاحبيّ تلبّثا لا تعجلا إن الثّواءَ رهينٌ أنْ لا تُعْذَلا
فلعلّ ريثَكما يفرّط سيّئاً أو يسبقُ الإسراعُ شيئاً مُرسَلا [٢]

فالشاعر يُظهر مروءتَه بحُسن حُجّته وتجاوزه عثرات الأصدقاء إلى نصحهم ، فتكامل صفات الرجل الخلقية هو الترياق الذي يحمل أسقام الأصدقاء بعيدا ويقرّب القلوب والعقول إلى سبيل الرّويّة[٣] .

ثالثاً : حِكَم عامة تسبُر منظومة القيَم، وتعلو بمكارم الأخلاق إلى ربى سامقةٍ بعيداً عن مناسبات بعينها فهي تصلح أن تكون برّ الأمان للإنسان الجاهلي أوّلا وللإنسانية التي لا تختلف كثيرا في طريق الخير والحكمة التي أملتها خبرات تراكمت على طول الأجيال لتصل إلى درجة قريبة من الثبات في نتائجها ،[٤] لأن " الطبيعة الإنسانية تكاد تكون متقاربة بين الأفراد . والفروق التي بينهم فروق عَرَضيّة أكثر منها جوهرية "[٥] يقول امرؤ القيس منوّهاً بضعف الإنسان :

---

[١] المعاني الكبير ج٣ ص١٢٥٥ الشعر والشعراء ج١ ص١٠٥ انظر ابن سلام الجمحي ــ طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٥٦ البغدادي ــ خزانة الأدب ج ١ ص ١٨٧ القلقشندي ــ صبح الأعشى ج١ص٣٥٠

[٢] المعاني الكبير ج٣ ص١٢٦١ انظر المفضلية ٤٥ ص ٤٥٨ ــ ٤٥٩

[٣] انظر شوقي ضيف العصر الجاهلي ص ٦٧ ــ ٦٩ حول المروءة و أبيات عبد يغوث الحارثي المعاني الكبير ج٣ ص١٢٦٠ وبيت امرئ القيس ج٣ ص١٢٦١ والنابغة الذبياني الشعر والشعراء ج١ ص٩٥

[٤] انظر شكري عياد ــ البطل في الأدب والأساطير ص ص١٤٠-١٤٢ وانظر قدامة ابن جعفر ــ نقد الشعر ص٦٥ انظر أبيات المثقب العبدي الشعر والشعراء ج١ ص٣١٢

[٥] أحمد أمين ــ النقد الأدبي ص١٠٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما المرءُ مادامتْ حُشاشةَ نفسهِ بمُدركِ أطرافِ الخطوبِ ولا آلي [١]

فهذا القصور ــ رغم الجهود المضنية ــ يجمَع الناس على ضعفهم، فالأولى اجتماعهم يداً واحدة تتضافر فيها الجهود حتى تبلغ أواخر الأمور وكنهها ، فإن شعر الفرد بضعف نفسه وعدم بلوغه كنه الأمور، فليجتمع مع آخرين ليقضوا حاجات ملأت عليهم وقتهم ، يقول الأعشى مبرزاً روح الجماعة :

فلسنا لباغي المُهمَلاتِ بِقرفةٍ إذا ما طَها بالليلِ مُنتَشِراتُها [٢]

لأن أمر الجماعة لا يصلح إلا بحسن الإدارة الاقتصادية؛ لذا كان توحيد الجهود في المراقبة والقيام على رعي الإبل وحراستها سبيلا لمجد القبيلة وطريقا للإشادة بها " أي لا يُطمع فينا لأنّا لسنا نُهمل أمرنا ــ وهذا مثل ــ "[٣] وكأنّ مجدهم المضيء القوي قابَلَ ظلمة الليل وظلم أهله لحظة تفرّق تُهلك ما يُقيم أوَد القبيلة ويُعلي من شأنها ، ولعل وجود إدارة اقتصادية حكيمة وحدها لا تكفي، فالعقل والبعد عن الطيش والسفه أوعى لاستحضار المآل وغيره لتؤدي إلى السلامة والأمن في شؤون الحياة كلها، يقول زهير بن أبي سلمى في معلقته :

إذا أنت لم تُعرِض عن الجهلِ والخنى أصبتَ حليماً أو أصابَكَ جاهلُ [٤]

" إذا أنت لم تحلم وقعت بين أمرين رديئين ، إمّا أصبتَ حليماً فسفهت عليه فأسأت ، أو أصابَكَ فسَفِهَ عليكَ ، وأساءَ إليكَ "[٥] .

وتتراكم هذه التحديات أمام الفرد والجماعة ساعة تذكُّر فعل الزمان في المكان وأهله ، فتستوي بذلك الجماعة مع الفرد في الرضوخ لتقدُّم العُمُر وعبثيّة الموت في اختيار ضحاياه، ويبدأ الشعور بالغربة وما يرافقها من اضمحلال واضح لتأكيد الذات أمام المستحيل، يقول المرقش الأكبر :

---

[١] المعاني الكبير ج٣ ص١٢٥٥ آلي :يدري

[٢] المصدر نفسه ج٣ ص١٢٥٦ المهملات : الإبل بلا راع . القرفة : الظبة طها : تفرق

[٣] المصدر نفسه ج٣ ص١٢٦٤

[٤] المصدر نفسه ج٣ ص١٢٦٤

[٥] المصدر نفسه ج٣ ص١٢٦٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليسَ على طُولِ الحياةِ نَدمْ ومِن وراء المرءِ ما يعلمْ [١]

وكأن الطرح السابق والتّساؤل المُلِحّ كيف نوقف آثار الزمن التي تتفاقم آثاره السيئة على جسد الإنسان وعقله وبيئته الاجتماعية المرتبطة بالمكان ؟ ولكنّه يلاقي شيئا من التعزية والسلوان بالنظر متفائلا نحو المستقبل الذي سيذكر مجده وعلمه وخبرته رغم عبثية مظاهر الحياة الطبيعية وغيابها، يقول أبو دؤاد الإيادي :

الماءُ يجري ولا نظامَ لَهْ لو وجدَ الماءُ مخْرَقاً خَرَقَهْ [٢]

والماء سبب الحياة وأصلها وهو يشكل ثنائية ضدية مع الزمن الذي يصعد الحياة اللاهثة وراء الماء أملا وألما، وكأن سيطرة القبائل الأقوى على الماء ومصارفه هي رفض حقيقي لحالة الاغتراب وهم صريح لإثبات مجد يجري مع الزمن بعد موت أهله وهذا موطن الحكمة الذي يعكس صدى تجربة إنسانية نفسية حقيقية تتشابك فيها الثنائيات[٣]
يقول الأضبط بن قريع :

يا قومِ، مَن عاذري مِن الخُدَعَه والمُسْيُ والصُّبحُ لا فلاحَ معَهْ
فصِلْ حِبالَ البعيدِ إن وَصَلَ الحبلَ وأقصِ القريبَ إن قَطَعَهْ
وَاقْنعْ مِن العيشِ ما أتاكَ بِهِ مَنْ قرَّ عيناً بعيشِهِ نَفَعَهْ
قَدْ يجمعُ المالَ غيرُ آكلِهِ ويأكل المالَ غيرُ مَنْ جَمَعَهْ
لا تهينَ الفقيرَ علَّكَ أنْ تَخشعَ يوماً والدهرُ قدْ رَفَعَهْ [٤]

وتجسّد هذه الأبيات وقْع عبثيّة الدهر وتعدُّد الثنائيات في نفس قهرَها الدّهر وأشعرها بضعفها، وكأن الشاعر يريد استبدال صور التفاؤل والقوة (الصبح ، المودة ، جمع المال ، الثراء) بصور الضعف والتفسخ (المسيء ، الكره والبغضاء ، الفقر) في لحظة الغربة النفسية عند صدّ التفاؤل والنظر إلى الواقع بمأساوية الخبرة التي تكررت أمام ناظري الشاعر

---

[١] الشعر والشعراء ج١ ص١٩

[٢] المصدر نفسه ج١ ص١٦٣ انظر الأغاني ج ٦ ص ٣٢٥

[٣] الأمين محمد الصغير ــ رؤية الشاعر الجاهلي للحياة من خلال رمز الطلل ص٧٨ وانظر مصطفى ناصف ــ دراسة الأدب العربي ص٢٣٩-٢٤٠ ص٣٠٣

[٤] الشعر والشعراء ج١ ص٢٩٩ انظر تعليل المحقّق على كلمة تهين واستبدالها ب تُعادِ أو تحقرن

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولاصقت سمْعه أحاديث وأخبار تؤكّد هذه العبثية ،[1] لذا بدت هذه الصورة تطغى أحيانا على علاقات اجتماعية بين الأصدقاء ، فيصبح الحزم والقسوة والخشونة بريداً للمعاناة، يقول المتنّبي العبدي :

فإمّا أن تكون أخي بحقٍ ... فأعرفُ منكَ غثّي من سَميني
وإلاّ فاطّرحني و اتّخِذني ... عدواً أتّقيكَ و تتّقيني
فما أدري إنْ يممتُ أرضاً ... أريدُ الخيرَ أيُّهما يليني
أألخيرُ الذي أنا أبتَغيهِ ... أمْ الشرُّ الذي هو يبتَغيني [2]

وتصل حالة التأزّم في أعلى درجاتها عند وصول الحكمة إلى الموت وطريقه الشيب والكبر وهي عوادي الحياة التي لا يستطيع ردّها [3] وهذه الأخيرة تشعر الإنسان بالعزلة نظراً للألم الذي لحق بالفرد ووجوده، فالزمن يخلط الثنائيّات في ذهن الفرد ويجعله ريشة في مهبّ الريح التي سبق أن امتصت مظاهر الحياة والحيوية من بيئة الشاعر[4]، وما هذا الشيب إلا بداية انتفاء عناصر الحيوية الجسدية والفكرية أمام الزمن الذي يغيّب دور الفرد ويسلمه إلى جيل الشباب وهم آلة التغيير وبركانه الذي يتفجّر حيوية وتحدياً أمام المعوّقات، يقول عبيد ابن الأبرص في معلّقته :

وكلُّ ذي نعمةٍ مخلوسُها ... وكلُّ ذي أملٍ مكذوبُ
وكلُّ ذي إبلٍ موروثُها ... وكلُّ ذي سلَبٍ مسلوبُ
وكلُّ ذي غيبةٍ يؤوب ... وغائبُ الموتِ لا يَؤوبُ
افلَح بما شئت فقد يبلغ بالضعف ، و قد يُخدَعُ الأريبُ
لا يعِظُ الناسَ مَن لم يعظْه الدهرُ ولا يَنْفَعُ التلبيبُ
ساعِف بأرض إذا كنتَ بها ... ولا تقلْ : إنّني غريبُ
قد يُوصَل النّازحُ النائي وقد ... يُقْطَعُ ذو السُّهمةِ القريبُ [5]

---

[1] مصطفى جباووك ــ الحياة والموت في الشعر الجاهلي ص٩٣

[2] الشعر والشعراء ج١ ص٣١٢ المفضلية ٧٦ .

[3] مصطفى ناصف ــ دراسة الأدب العربي ــ ص٣٠٣ زكريا إبراهيم ــ مشكلة الحياة ص١٨٣

[4] زكريا إبراهيم مشكلة الحياة ص٣١-٣٢

[5] الشعر والشعراء ج١ ص ١٨٨-١٨٩ يلاحظ مدى تأثر الشاعر بشمولية أثر الزمن السلبي من ألفاظ تكررت من مثل : كل افلح بما شئت لتدل على العبثية والضياع والغربة في نفس الشاعر المفضليةص٥٨٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه الجدليّة بين مظاهر الحياة والموت حدَت بأبي كبير الهذلي أن يجعل مطالع أربـــع مـــن قصائده تحمل البداية نفسها وبالشكل اللفظي والمعنوي الذي يحمل توكيدا لـــهذه العبثيـــة " ولا نعرف أحدا من الشعراء فعل ذلك "[١] يقول أبو كبير :

الأولى:

أزهيرُ هل عن شيبةٍ من مَعْدِلِ أم لا سبيلَ إلى الشبابِ الأوَّلِ

الثانية :

أزهيرُ هلْ عن شيبةٍ من مُقْصِرِ أم لا سبيلَ إلى الشبابِ المدبَّرِ

الثالثة :

أزهيرُ هلْ عن شيبةٍ من مَصرفِ أم لا خلودَ لبـــاذلٍ متكلِّفِ

الرابعة :

أزهيرُ هلْ عنْ شيبةٍ من مَعْكَمِ أم لا خلودَ لباذلٍ متكرِّمِ [٢]

وما دام هذا الهاجس لا يغادر عقل الشاعر في استرجاع الشباب أو الخلود عبر صيغة السؤال، فلابدّ أن يستمدّ الشاعر من بيئته التي سبّبت له كلّ هذه العبثيّة سبيلاً ورمزاً يربط فيـــه هـــذه الجدلية؛ ليستشرف مستقبلاً مشرقاً يبعث الأمل والحياة في صراع الحياة المرير، وما هـــي إلا لحظات ويظهر الصائد وثور الوحش عبر معادل موضوعي ينتصر فيه الإنسان الجاهلي علـــى جميع ألوان التربُّص التي يعلنها الصيّاد لهذا الثور، أما إذا كان هـــذا الثـــور ضعيفـــا تتمكّـــن الكلاب من عضّه والسهام من نهشه فالموت له بالمرصاد بعد أن أضناه التعب وأنهكه المضـــي قدماً في الفرار من أسباب الموت، يقول ساعدة بن جُؤيّة :

أرى الدّهرَ لا يبقى على حَدَثانِهِ أبودّ بأطرافِ المنايا جلعـــدُ

تحـــوّل لوناً بعـــد لونٍ كأنّهُ بِشَفَانَ يومَ مَقلعِ الوَبلِ يَصـــردُ

وشَقَّـــتْ مقاطيعُ الرُّماةِ فؤادَهُ إذا سمعَ الصوتَ المغرِّدَ يَصلدُ [٣]

---

[١] الشعر والشعراء ج٢ ص٥٦١

[٢] المصدر نفسه ج٢ ص٥٦١

[٣] المعاني الكبير ج٢ ص٧٢٨ الأبود : الأبد المتوحش . المناعة : بلد . الجلعد : الغليظ يعني وعلا . تحول لونا : يقعشر فيجيء لون غير لونه . الشفان : الريح الباردة . فرائصه : مفردها فريصة وهي المضغة تحت الكتف إذا فزعت الدابة ارتعدت مقاطيع : سهام . المغرد : العالي . يصلد :يعلو

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهذا التحدّي من عناصر الموت التي قابلت الشاعر وقبيلته وجدت مخرقا تنفذ إليه، وتحطمت آمالهم عبر المعادل الموضوعي [الثور أو الوعل] على صخرة الموت التي دقّت عنق الأمل والخير والصلابة والخشونة والثبات التي يلفّها الثور أو الوعل بين جنبيه ، إن عناصر الجدب والتعرية طالت هذا الرمز وستطول من بعده آخرين[١] أو تمثل فيهم عناصر الزمن أبشع تمثيل قبل موتهم ، يقول المرقش الأكبر في حواره مع عاذلته :

فهلْ يرجِعْنَ لي لِمّتي إن خضبتُها ... إلى عهدِها ، قبلَ الممات خضابُها
رأتْ أُقحوانَ الشيبِ فوق خَطيطِه ... إذا مُطِرتْ لم يَستَكِنَّ صُوَابُـــها
فإن يُظْعِنِ الشيبُ الشَّبابَ فقد تَرى ... به لِمّتي لم يُرْمَ عنها غرابُـــها [٢]

ولعلّ الشؤم الذي يدلّ عليه الغراب والشيب والظعن والخطيطة (الصلعة) إشارة لجدب الطبيعة ولفعل الزمن بها حتى وصلت الأمور إلى أشدّ صورها تأزُّماً ومعاناة ساعة وصلت عناصر الجدب إلى الرأس رمز السيادة وصنع القرار و ديدن الحيوية للتغلب على أمارات التحدي ، فالشاعر يستسلم لعناصر الموت حتى أن القمل ترك رأسه لما عبث به الكبر وأتعبته السنون مستغلاً جدب الأرض وفعل البيئة الصحراوية في أهلها، ويقول يزيد بن خذّاق في ذمّ الدنيا :

هل للفتى من بنات الدهر من واقي ... أم هل له من حِمامِ الموت من راقي
قدْ رجّلوني وما بالشَعر من شَعَثٍ ... وألبسوني ثياباً غيرَ أخـــلاقِ
ورفعوني، وقالوا : أيُّمـا رجل ! ... وأدرجوني ، كأنّي طـيَّ مخراقِ
و أرسلوا فتيةً من خيرهم نسباً ... ليُسندوا في ضريحِ القبر أطباقي
وقسّموا المال وارفضّت عوائدُهم ... وقال قائلهم : مات ابـــن خَذّاقِ
هـــوّن عليكَ ولا تُولَعْ بإشفاقِ ... فإنّمـــا مالُنا للوارث الباقي [٣]

فقد يحاول " الإنسان في كل زمان ومكان أن يقهر الزمن ويصرع الشر ويسحق الموت ،

---

[١] انظر أدونيس ــ كلام البدايات ص٥٧ وانظر عبد القادر الرباعي الصورة الفنية في النقد الشعري ص١٤٥

[٢] الشعر والشعراء ج١ ص١٣٩ والبيت الثاني في المعاني الكبير ج٣ ص١٢٢٢ والقصيدة في المفضلية ٤٥
الخطيطة : الأرض غير الممطرة بين أرضين ممطورتين شبه رأسه بها لصلعته ، الصوّاب : القمل

[٣] الشعر والشعراء ج١ ص٣٠٢ انظر المفضلية ص ٦٠٠ ــ ٦٠٢ جاء برأي في نسبتها للممزّق العبدي، ابن سلام الجمحي ــ طبقات فحول الشعراء ج١ ص ٢٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكنه لم يلبث أن تحقّق من أن صراعه اليائس ضد هذا الثالوث المارد الجبـــار ، إن هـــو إلا جهد ضائع لابدّ أن يبوء بالفشل والخيبة والدمار " [١] . وكأنّ الوحدة التي تتسرب في مخـاوف الإنسان الدائمة من الموت بعد الحركة العنيفة التي لازمت رثاء الشاعر لنفســـه أمـــام ســـاعة توسيده بالقبر وتقسيم أمواله[٢] " إذ بعد فراق الأهل والأصحاب يتركونه وحيدا في العـــراء "[٣] أو في ظلمة القبر.

فكان في انسجام فلسفة الشاعر مع نظرته للحياة والموت طريـــق وضّحـــه الشـــعراء عندما توقعوا قرب ساعتهم إما لأسر طال بهم، وإما لمرض اشتدّ عليهم، وإما لعجز ألقى بثقـل كاهله عليهم ...إلخ، يقول الشنفرى ــ بعد أسره ــ لأصحابه :

فـــــلا تدفنوني إن دفني محرم ... عليكم ولكن خامري أمّ عـــامرِ
إذا حملوا رأسي وفي الرأس أكثري ... وغُودِر عند الملتقى ثَمَّ سائري
هنـــــالك لا أرجو حياةً تسرُّني ... سميرَ الليالي مُبْسَلاً بالجرائرِ [٤]

فالشنفرى رفضته القبيلة وهو بصعلكته يرفض القبيلة بشكل التزامها الحالي بقانون العصبيـــة ، ومن باب تأكيد الذات والاستعلاء حتى الرمق الأخير قال " لا تدفنوني إن دفني محرم عليكـــم يريهم استغناءه عنهم حيا وميتا ورفعه نفسه عن الاستقامة إليهم، والاعتماد عليهم وذهابه عنـهم فعل المجانب لهم البعيد عنهم "[٥] ولكن ما سبب كل هذه الصورة البشعة لنهاية الشاعر ؟ مـــا سبب رفضه للقبر مكاناً تأوي إليه هذه الجثة الهامدة ؟ أتراه عار الأســـر أم أن القـــهر الـــذي مارسه مجتمع قبيلته على وجوده بينهم قد ولّد عنده ردّ فعل عكسيا في رفـــض قـــاطع لـــهذا المكان الذي جاء منه الظلم ويأوي على ظهره هذه القبيلة، فمن باب أولى أن يكون خارج هـــذا المكان ويغترب عنه أشدّ اغتراب في بطون السباع التي تكسر حتـــى العظـــام وتنـــهي آثـــار صاحبها عن وجه الأرض ، أم تراه يقف موقفا لم يعلن عنه في حياة ما بعد الموت .[٦]

---

[١] زكريا إبراهيم ــ مشكلة الحياة ص١٤١

[٢] مصطفى جباووك ــ الحياة والموت في الشعر الجاهلي ص١٧٣

[٣] عبد الرزاق الخشروم ــ الغربة في الشعر الجاهلي ص٢٩٦

[٤] الشعر والشعراء ج١ ص٢٥ أم عامر : الضبع ،انظر المفضلية ص٩٧ الأغاني ج١٠ص ١٨٨

[٥] المرزوقي شرح ديوان الحماسة ج٢ ص٤٨٨

[٦] انظر الموقف الآخر الذي يسلكه امرؤ القيس في حديثه مع جابر بن حنى التغلبي الذي ناقض حديث الشنفرى مع صاحبيه انظر الشعر والشعراء ج١ ص٥٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبالرغم من هذا الموقف الذي يشوبه القهر إلا أن الموت يبقى حقيقة يصل إليها كل إنسان كلما سار في الأرض واعتبر من قصص الأولين .[١] ومن فلسفة الشاعر أن يقف موقفا إيجابيا يكون فيه الطمأنينة والحيوية[٢] رغم هادم اللذات الذي ملأ على الشاعر فكره، يقول زهير بن جناب :

الموت خيرٌ للفتى فليَهلِكَنْ وبهِ بقيّة
من أن يُرَى الشيخ الكبير يُقاد يهدى بالعشيّة
من كلّ ما نال الفتى قد نِلْتُه إلا التحيّة [٣]

فإن الشباب هو المجد وهو روح الاستعلاء في أوج عنفوانها، وهو الطاقة التي لا تنفد من التحدي والصمود والثبات وتحمل الخشونة ، فيكوّن الشاعر مرتكزات تتناسى وقع الموت النفسي بتنسُّم بوادر مستقبل فيه الصراع الدائم بين الخير والشرّ ، وهذه الأبعاد الإيجابية في نفس الشاعر تخلق تحدّياً خفيّاً للموت عندما يتحوّل الموت إلى قوّة يستعملها الشاعر على أعدائه ليُهلِكهم ، يقول عنترة بن شداد :

إنّ المنيّةَ لو تمثّلُ مُثّلَتْ مثلي إذا نزلوا بِضَنْكِ المنزلِ
وأنا المنيّةُ في المواطن كلّها والطّعنُ مني سابقُ الآجالِ [٤]

ويقول عَديّ بن زيد العبادي :

فهل من خالدٍ إمّا هلَكْنا وهل بالموتِ يا للناسِ ! عارُ [٥]

---

[١] انظر أبيات عدي بن زيد العبادي الشعر والشعراء ج١ ص١٥٢ وأبيات صخر أخي الخنساء الشعر والشعراء ج١ ص٢٦٢ وأبيات الأسود بن يعفر الشعر والشعراء ج١ ص ١٧٦-١٧٧ وأبيات عدي بن زيد العبادي الشعر والشعراء ج١ ص ١٥٠-١٥١

[٢] تساءل كثير من الشعراء الجاهليين أثناء حديثهم عن زوال أصحاب السلطان والأسياد أ صحاب القلاع والقصور والمال والكنوز بالموت ولكن قصورهم وقلاعهم وكرمهم بقي مجدا يحييهم في حياة من يذكرهم .

[٣] الشعر والشعراء ج١ ص٢٩٥ الأغاني ج٣ ص ١٢١ ج١٩ ص ٢٧

[٤] المصدر نفسه ج١ ص١٧٤ ضياء الدين الموصلي ــ المثل السائر ج٢ ص ٣١٣

[٥] المصدر نفسه ج١ ص١٥٣ الأغاني ج ٢ ص ١٤٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما دام الناس سيّان فإن حِكَم الشعراء حول الموت حَكَمَتْ بالمجد لمن طابت سيرته بين النـاس وحُمِدت سريرتُه التي يَصْدُر عنها منظومة القيم التي تُبقي على تماسك الجماعة ،وتلمّ العصبيـة الناس بركن قوي، يقول طرفة بن العبد عندما تناسى أعمامه العصبية التي تجمعـــهم فـأخذوا ماله:

مـــا تنظرون بمال وردةَ فيكم ... صغُرَ البنونَ ورهطُ وردةَ غيَّبُ
قد يبعثُ المرءَ العظيمَ صغيرُهُ ... حتى تظلّ لَـــهُ الدِّماءُ تصبَّبُ
والظلمُ فـرّقَ بين حيَّي وائلٍ ... بكْرٌ تُساقيها المنايا تَغْلـــبُ
والصدقُ يألَفُه الكريم المُرتَجى ... والكذبُ يألَفُهُ الدَّنيُّ الأخيَبُ [1]

ويظهر طرفة ــ رغم حداثة سنه ــ حكيماً في سبْر النظرة الاقتصادية التـي يشـوبها الظلـم والعدوان على مال الأقارب، ورغم ما بالظلم والعدوان من شَرَر يتطاير إلا أن الشاعر يبتعـد عن اكتناه الظلم إلى تصوير عواقب طمع الإنسان في شكلها القبيح التي تفرق بين الناس كمـا فرقت حرب البسوس بين بكر وتغلب، وفي الوقت نفسه يُكْبِر الشـاعرُ البديـلَ الخـيِّر فـي المنظومة الأخلاقية؛ لتصلُح بعدها البيئة الاقتصادية له ولقبيلته ، ويظهر هذا التهديد أيضا فـي خبرة أوس بن حجر إذ يقول :

وإنّي رأيتُ الناسَ إلا أقلّهم ... خِفافَ العُهـــودِ يُكثِرون التنقُّلا
بني أمِّ ذي المال الكثير يرَوْنَه ... وإن كان عبـداً سيِّدَ الأمرِ جَحْفَلا
وهمْ لمقلِّ المـــالِ أولادُ علّةٍ ... وإن كان محْضاً في العُمومَةِ مُخْوِلا [2]

وتبدو الحكمة في الأبيات السابقة مؤيّدة مَن يسيطر على وسائل الإنتـاج ــ وبشـكل منقطـع النظير ــ عندما تشتدّ الحياة بقبيلة ما ويكثُر المعوزون والفقراء عندها تتغير منظومـة القيـم ويتخلى الإنسان عن مكارم الأخلاق لأنه لا يستطيع أن يلبي حاجاته الأساسية التي تسدُّ رمـق البطون الجوعى والأجساد المنهكة؛ لتبقى على قيد الحياة حتى العصبية القبلية تبدو في أضعـف حالاتها في محافظتها على قداسة القربى والصدق في العهود والفرق بين العبد والسيد لحظـة السيطرة على المال ، ولكن تبقى لُمَعُ الحلّ في ذهن الشاعر يقول أوس معقّباً :

---

[1] الشعر والشعراء ج١ ص١١٩ .

[2] المصدر نفسه ج١ ص١٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَليس أخوكَ الدائمُ العهدِ بالذي يذمُّك إن ولّى ، ويُرضيك مُقبِلا
ولكنْ أخوك النائي ما كنت آمِناً وصاحبُكَ الأدنى إذا الأمر أعضَلا [١]

وهذه الفردية تجعل القبيلة في مهب الريح وعلى عتبة الضياع أمام صراعات الصحراء التي لا يقف أمامها سوى قوة القبيلة وتكامل رأي أهل الحل والعقد الإداري للقبيلة ومكامن الضعف والقوة فيها ، يقول الأفوه الأودي :

لا يَصلحُ القومُ فوضى لا سَراة لَهُم ولا سراة إذا جهالُهم سادوا
تُهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحتْ فإن تولّت فبالأشرارِ تَنْقادُ [٢]

فلا تتمّ سياسة الأمور إلا بسيّد القبيلة " المختار برجاحة عقله ، وكرم خلقه، وعظم ثروته، وقوة عصبيته، يعيش نافذ الكلمة ، محترم الرأي في السّلم والحرب "[٣] وتُفرَد لهذا السيد سبل الحكمة لاستمرار إدارة القبيلة وحمايتها من الأعداء والتشديد على ضمان الأمن كي لا يحدث مالا تُحمَد عاقبته في القبائل الضعيفة، يقول الحارث بن حِلِّزَة اليشكري في معلقته :

هل علمتُم أيّامَ يُنتهَب النا س غواراً لكلّ حيٍّ عواءُ
إذ رفعنا الجِمالَ من سَعَف البحـ ـرين سيراً حتى نهاها الحساءُ
ثم مِلنا على تميمٍ فأحرمـ ـنا وفينا بناتُ قومٍ إماءُ
لا يُقيم العزيزُ بالبلد السّهـ ـل ولا ينفعُ الذليلَ النجاءُ [٤]

وهذه الصورة الصريحة التي نسجت بعد حرب طويلة خاضتها خبرةٌ أَلِفَتِ الحرب وفنونها ، والشاعر يرى في العصبية المنفذ الأقوى لاسترداد الحقوق مع مشورة أهل الرأي في أشكال الحرب والسلم والمحافظة على مقدّرات القبيلة وذخائرها سليمة.

وبعد كلُّ هذه العصبية والجماعية تأتي الحكمة لتتسرب في مجرى الأنا الشخصية التي يبدُّ فيها الشاعر عن قومه، ويشعر بقدسية مكانته وسيرورتها في التأثير في قرار الجماعة

---

[١] الشعر والشعراء ج١ ص١٣٧

[٢] المصدر نفسه ج١ ص١٤٩ سراة : مفردها سري وهو الشريف في قومه .

[٣] أحمد الشايب ــ تاريخ الشعر السياسي ص٣٨ وانظر عمر فروخ ــ العرب في حضارتهم وثقافتهم ص٤٦ .

[٤] المعاني الكبير ج٢ ص٩٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والأسياد والملوك ليصل الشاعر بفصاحته إلى مراتب عليا، وإذا اختلطت هذه الفصاحة بـــالعلم والحكمة [١] فإن الشاعر يبلغ شأنا عظيما في قبيلته كأن يصبح سفيرا لفض المنازعات . ولـهذا تبوأت الفصاحة درجة عالية في سلّم القيم عند الجاهليين، يقول طرفة بن العبد :

وتردُّ عنك مَخيلَةَ الرَّجُلِ ال ـــعريضِ مُوضِحَةٌ عن العظمِ
بحسامِ سيفِك أو لِسانِكَ ، وال ـــكَلِمُ الأصيلُ كأرغبِ الكَلْمِ [٢]

وهذه الفصاحة ليست متاحة لكل الناس بل هي تبدو للخواص كما ينوّه غير شاعر من عواقـب الكلام دون تفكير ، فهذه العملة ليست متاحة لكل الناس بل هي بحاجة ملحة إلى جودة الســبك والكلام وقت الحاجة، يقول طرفة بن العبد :

وأعلم عِلمـــاً ليسَ بالظنِّ أنّه إذا ذلَّ مولى المرء فهو ذليلُ
وأنّ لسانَ المرء ــ ما لم تكن له حصاةٌ ــ على عوراتِه لدليلُ
وأن امرأ لـــم يعفُ يوماً فُكاهَةً لمَن لم يُرِدْ سوءاً بها لَجهولُ [٣]

وهذه الفصاحة تحتل مكانة في مروءة الرجل الجاهلي وعلى السيد والشريف والكريـــم إذا أراد تكامل مروءته أن يتجاوز لسان المرء هذره ولغوه إلى روز الكلمات وتمييز الغث مـــن السمين قبل أن تطير الكلمة السيئة من اللسان فتبلغ ما تبلغ وهذا التلم في مروءة الرجل يضمـن له عارا ويبعده عن المجد والاستعلاء والصلابة والثبات التي يبحث عنها الجـاهلي بكـل مـا أوتي من مقومات . لذا يقول عنترة بن شداد في مطلع معلقته :

هل غادر الشعراء من مُتردم ؟ أم هل عرفتَ الدارَ بعدَ توهُّمِ ؟ [٤]

فعنترة بعد تساؤله عن مثال الفصاحة الأعلى في زمنه الذين تخرموا الألفاظ والأغراض، فلـم يدع القديم للجديد منفذا يصل فيه عنترة إلى المجد الذي طالما بحث عنه في قتاله وفي شعره

---

[١] انظر بيت طرفة بن العبد الشعر والشعراء ج١ ص٢٤ وانظر قول المتلمس الشعر والشعراء ج١ ص١١٢

[٢] المصدر نفسه ج١ ص١٢٥

[٣] المصدر نفسه ج١ ص١٢٥ انظر البحتري ــ ديوان الحماسة ج٢ ص ١٨١

[٤] المصدر نفسه ج١ ص١٧٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليثبت أمام قبيلته وأبيه وعبلة أنّه أهل لاعترافهم جميعاً، فسبل المجد جميعها بين يديه ومن باب أولى أن يَكفّوا عن استمرار قهره وهو يتساءل في عمق نفسه عن سبب هذا القلق الذي يشعر به تجاه عدم اعترافهم به .

ويربط لذلك الأعشى واقعه بدور الشعر في تعزيز إرادته وتثبيت مكانته الحيوية في قبيلته[١] ،وينتصب الشعر تاجاً أخّاذاً على هرم الحيوية ليفتخر الشاعر بهذه القوة ، يقول الأعشى (ميمون بن قيس) :

وقيّدَني الشعرُ في بيتِهِ كما قيّدَ الآسراتُ الحِمارا [٢]

ويقول عمرو بن قميئة مفتخرا أمام محبوبته :

فإنْ تشغبي فالشغبُ منكِ سجيةٌ إذا شيمتي لم يُوْتَ منها سجيحُها
أُقارِض أقواماً فأُوفي بِقَرضِهم وعفٌ إذا أبْدى النُفوسَ شحيحُها [٣]

وفي الشعر طريق في المنافسة للوصول إلى مراتب أعلى بين الشعراء على مستوى القبيلة أو القبائل؛ لذا برزت المنافسات في سوق عكاظ لإظهار مدى شاعرية أحدهم[٤]، يقول النابغة الذبياني :

يصدُّ الشاعرُ الثّنيان عنّي صُدودَ البكرِ عن قَرْمٍ هِجانِ
أثرتَ الغيَّ ثمّ نَزَعْتَ عَنهُ كما حاد الأزبُّ عن الطّعانِ
وأيُّ النّاسِ أغدَرُ مِن شَآم له صُرْدانِ مُنطَلِقُ اللّسانِ [٥]

---

(١) يقول ابن قتيبة : " الشعر معدن علم العرب " عيون الأخبار ج٢ ص١٨٥

(٢) الشعر والشعراء ج١ ص١٨١ الآسرات : النساء اللواتي يحكمن ربط الرحل الحمار : ثلاث خشبات أو أربع تعترض عليها خشبة وتؤسر بها (ابن منظور لسان العرب مادة أسر) .

(٣) المصدر نفسه ج١ ص٢٩٢ السجيح : الحسن السهل في المعاملة

(٤) المصدر نفسه ج١ ص٢٦١ انظر تفاصيل قصة النابغة الذبياني مع حسان بن ثابت والخنساء

(٥) المعاني الكبير ج٢ ص٨٢٣ الثنيان : الذي يعد ثانيا من الشعراء . قرم هجان : فحل ذكر قوي الأزب : كثير وبر الحاجبين والرموش . الطعان : حبل يشد به الهودج . الصردان : عرقان يكتنفان اللسان وقال شآم ؛ لأن النابغة كان بالشام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولما كان المدح والهجاء من الثنائيات التي لا تغادر ذهن الإنسان الجاهلي مهما كانت مكانته في قبيلته، فالشاعر يثير الشرّ ثم يتركه جانباً مع حريّة لا تتاح لغيره ، ويشير عن قوة الفصاحة بشكليها المادي والمعنوي فهذا اللسان له عرقان قويان يمُدّان اللسانَ بأسباب القوة التي تجعله قدرا تلقم كل ما يوضع بها وتذيبه فيصبح لا كيان له وهذا حال المهجوّ، يقول الأعشى :

وربَّ بقيعٍ هَتَفَت بجوّهِ ... أتاني كريمٌ يَنْفُضُ الرأسَ مُغْضِبا [١]

ويقول زهير بن أبي سلمى :

وذي نِعْمةٍ تمَّمتُها وشَكرتُها ... وخصمٍ يكادُ يغلبُ الحقَّ باطِلُهْ
دفعتُ بمعروفٍ من القولِ صائبٍ ... إذا ما أضلَّ القائلينَ مفاصِلهْ [٢]

ويقول عمرو بن الإطنابة :

فإنّكم وما تَرجُونَ شَطري ... من القولِ المُرغّى والصَّريحِ [٣]

فالشعراء يتبارَون في صدى مفعول شعرهم، فأوْجَهُهُم من أبرز وعيداً لأعدائه أو لأعداء ممدوحه وصدّهم بفنّه عن إعلان العداوة له أو لممدوحه، فعمرو بن الإطنابة جعل نار الوعيد والعداوة التي تغلي في قدر الحياة ومصاعبها تميّز القول المستور المعرّض به بالمهجوّ الذي شبهه باللبن الذي تعلوه رغوة ، أما القول الظاهر المكشوف فهو اللبن الصريح الخالص الذي به الفائدة وعليه الاتكال في معركة الحياة.ولا يجيد هذين القولين إلا من اختمرت اللغة في عقله وزادته التّجارِب أواراً ليقدح بثقاف الإبداع ويعلن عن قُدرة لا يجاريه فيها مجار . يقول أوس بن حجر :

---

[١] المعاني الكبير ج٢ ص٨٢٥

[٢] المصدر نفسه ج٢ ص ٨٢٥-٨٢٦

[٣] المصدر نفسه ج٢ ص٨٢٧ شطري : نحوي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإنْ هزّ أقوامٌ إليَّ وحدّدوا كَسَوتُهمُ من حَبْرِ بَزٍّ مُتَحَّمِ [١]

فمن يسير في انتقاص حقّ الشاعر وقومه سيلحق بهم هجاء تسير به الركبان حتى يُعرَفوا من بين الناس به " كما يَشْهر صاحب اللباس "[٢] اليمني المزين .

ولم تكن هذه المنافسة دخانا دون نار عظيمة في صدور الشعراء لأنّ من ورائها نعيماً تقطف ثماره في حقيقة المكانة التي يضطلع بها الشعراء المشهورون سواء أكانوا سفراء أم ندماء للملوك والأشراف أو سيكون من ورائها دفء ماديّ يغني حال الشاعر من خزائن هؤلاء الملوك والسادة مع ضمان قضاء الحاجات في عفو عن أخ أو اعتذار يزيّن به مدحه .[٣]

الشاعر السفير :

تبصّر كثير من الملوك والسادة والأشراف في واقع الحياة الجاهلية وتبيّنوا أنّ للشعراء مكانة مميزة يستغلونها في إعلام الناس عن مجدهم الكبير الذي حققوه بانتصاراتهم وحكمتهم وكرمهم واكتمال مروءتهم ، وتظهر سفارة علقمة الفحل في شفاعته لأخيه مثالا يحتذى للشاعر الجاهلي حيث " كان لعلقمة بن عبدة أخ يُقال له شأس بن عبدة أسره الحارث بن أبي شمر الغساني مع سبعين رجلا من بني تميم فأتاه علقمة بقصيدة أولها :

طَحا بكَ قلبٌ في الحسانِ طَروبُ بُعيدَ الشَّبابِ عَصرَ حان مَشيبُ

إلى الحارث الوهّابِ أعملْتُ ناقتي لكَلْكَلِها والقُصْرَيَيْنِ وَجيبُ

فلما بلغ هذا البيت :

وفي كلِّ حيٍّ قد خبطْتَ بِنِعْمَةٍ فَحُقَّ لشأسٍ من نَداكَ ذَنوبُ

" وإنما أراد علقمة ... أن النابغة (الذبياني) كان شفع في أسارى بني أسد فأطلقهم ... ثم سأله علقمة (الفحل) أن يطلق أسارى بني تميم ففعل "[٤] .

---

[١] المعاني الكبير ج٣ ص ١١٧٥ بز : ضرب مشهور من برود اليمن . حبر : أجمل . هز : ساروا سيرا سريعا حددوا : أعلنوها حربا

[٢] المصدر نفسه ج٣ ص١١٧٥

[٣] انظر في صورة نموذج الشاعر البطل وطموحه شكري عياد ــ البطل في الأدب والأساطير ص١٤٠ عز الدين إسماعيل الأدب وفنونه ص٤٣ عبد القادر الرباعي ــ الصورة الفنية في شعر زهير بن أبي سلمى ج١ ص١٣١ .

[٤] الشعر والشعراء ج١ ص ١٤٧-١٤٨ انظر المفضلية ص ٧٦٥ ــ ٧٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالسّفارة برزت من القصة السابقة لعلقمة الفحل ومن قبله النابغة الذبيـاني ، فالشـاعر يمـلأ الدنيا إشادة بمناقب الممدوح وعفوه ، وكي ينال حقّ القبول لابد مـن إتمـام تجشُّـم الشـاعر أصناف المعاناة بعد طلل عاف وحبيبة ظاعنة ورحلة شاقة على ناقة جسـراء ضمـن تقـاليد اتبعها أكثر الشعراء في سفاراتهم، يقول الممزّق العبدي :

وَناجـيةٍ عَدّيتُ من عندِ مـاجدٍ ... إلى واجدٍ من غيرِ سُخْطٍ مُفَـرّقِ
تُبَـلِّغُني مَن لا يُدَنِّس عِرْضَـهُ ... بغدرٍ ،ولا يـزكو لديه تَمـلُّقي
تروحُ وتغدو ما يُحَـلُّ وَضينُـها ... إليكَ ابنَ ماءِ المُزنِ وابنَ مُحَـرّقِ
أحقاً ، أبيت اللّعـنِ إن ابن فرتنا ... على غيرِ إجرامٍ بريـقِيَ مُشْرِقِـي
فإن كنـتَ مأكولاً فكُنْ خيرَ آكِلٍ ... وإلا فـادركْـني ولمّـا أُمَـزّقِ
فأنتَ عميـدُ النّاسِ مهما تَقُلْ نَقُلْ ... ومهمـا تَضَـعْ من باطلٍ لا يُحقّقِ
أكـلفتني أدواءَ قـومٍ تركتَهُـم ... فإلاّ تُـداركني من البحـرِ أغْـرَقِ
فإن يُعْمِلوا أُشْئِـم خِلافاً عليهـم ... وإن يُتْهِموا مُستَحقِبي الحربِ أُغرِقِ [1]

فكانت الحركة محورَ الحلّ الأوليّ الذي قام به السفير إلى صاحب القـرار والسـيادة ، وهـذه الحركة يدفعها همٌّ داخليٌّ لنجاح مهمة السفير، ويلزم هذا الهمّ حركة خارجية يقوم بها الممـدوح في قضاء حاجة السفير . والشاعر السفير بدوره سيحرك القوافي والعواطف والأسماع لتبـدو في ألَقها الذي يصوّر الأمل والتفاؤل بوصول الشاعر إلى ممدوحـه سـاعة الإشـادة بقوّتـه وشجاعته ومجده وسيادته وسماحته التي وصلت حدّاً سيصفح عـن قـوم الشـاعر وأذاهـم ، والشاعر بدوره سيخالف قومه في أيّ شأن يخالف رغبة الممدوح ، فالشاعر يضرب بعصبيتـه عرض الحائط ، وإذا كانت الأمكنة الدليل المادي لكسب طمأنينة الممدوح فسـيخالف الشـاعر قومه ويتركهم إلى أقاصي البلاد .

وما ثناء زهير بن أبي سلمى في حرب داحس والغبراء ومدائحـه إلا تعزيـز لـدور الشعراء الإيجابي في ترويض النفوس نحو الصلح والسلام وبث روح التفاؤل والأمل لمسـتقبل أفضل ، فالشاعر يندمج مع هموم مجتمعه الكبرى منها منطلقا يشارك به أحلامهم ويسعى مـن خلاله إلى دقائق شخصيّاتهم ليبثّ فيها العزم والمجد لتتحرك نحو رؤية المستقبل الذي يزخم

---

[1] الشعر والشعراء ج١ ص٣١٤ انظر الأصمعية ٥٨ ص ١٦٤ ــ ١٦٦ يعمنوا : يدخلوا عمان أشئم : أدخل الشام يتهموا : يدخلوا تهامة أعرق : أدخل العراق ابن فرتنا : ابن الأمة أو اللئيم يعب به .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بهؤلاء العظماء الذين حطموا معاناة الواقع ممثلة بحرب داحس والغبراء ووصلوا إلى بر الأمن والسلام وتغلبوا على مظاهر الجدب في الزمان والمكان وحافظوا على عصبيتهم في شكلها الحضاري الجديد على يد يزيد بن حارثة بن سنان والحارث بن عوف يقول زهير بن أبي سلمى :

سعى ساعيا غَيظِ بنِ مرّةَ بَعدَما ... تَبَزّلَ ما بينَ العشيرةِ بالدمِ
يميناً لَنِعمَ السيدانِ وُجِدتُما ... على كلّ حالٍ من سَحيلٍ ومُبْرَمِ
تداركتُما عبساً وذُبيان بَعدَما ... تَفَانوا ودقّوا بينهم عِطْرَ مَنْشِمِ
لعمري، لَنِعمَ الحيُّ جرّ عليهمُ ... بما لا يُؤاتيهِم حُصينُ بنُ ضَمْضَمِ [1]

فقد يكون الثناء للتّهنئة بالصلح وتمجيد الأفراح ومدح الملوك من أشراف القبائل الأخرى كزهير بن أبي سلمى في مدحه للمصلحين في الحرب أو تراه يقلب للناس ظهر المجن ويعلنها حربا كلامية تتطاير منها شرر الهجاء وقدح بالملوك والسادة الذين رفضوا الطريق الذي من أجله تجشم الشاعر المعاناة وقطع الفيافي ليجد غير ما يريد . ولعل السادة والأشراف كانوا يخشون من مجيء سفير شاعر فيدبّ في عظامهم عارا هم بأمسّ الحاجة إلى أن يبدلوه مجداً عزّ نظيره . فالسيّد والملك يحاول في مجيء شاعر مشهور أن يظهر دماثة خلقه وصبره وتحمّله الأذى ، بل هو على استعداد ذهني ومادي لإغداق العطايا النفيسة على هؤلاء الشعراء[2] وفي سفارة النابغة الذبياني الذي " لم يجد بدّاً من أن يسعى إلى الغساسنة ويمدحهم حتى يكفّوا عن قومه ويردوا الحرية إلى من سبوه منهم فنزل بعمرو بن الحارث الأصغر ... ومدَحَهُ مَدْحاً رائعاً كما مدح أخاه النعمان وأكْبرَا سفارتَه لديهما فعفَوَا عمن أسراه ، وكان جزاؤهما من النابغة الذبياني مديحه الرائع لهما ... محاولا بكل ما استطاع أن لا يعودا إلى حرب قومه أو حرب أحلافهم ... وعلى هذا النحو كانت سفارته لدى الغساسنة ذات فوائد جليلة لقومه وأحلافهم "[3] ولعل في سفارته إلى بلاد الغساسنة ورجوعه بعد ذلك إلى بلاط المناذرة يفسّر سياسته في قوله:

---

[1] المعاني الكبير ج٢ ص٨٨٠ تبزل : تشقق سحيل : خيط غير مفتول على طاق والمبرم يفتل على طاقين (يعني كل حال من شده وسهولة) منشم : الابتداء بالشر (وانظر قصة المرأة العطارة مع القوم الذين تعاهدوا للحرب) حصين بن ضمضم لم يدخل في الصلح وكان قد قتل رجلا يوم التقى الفريقان للصلح

[2] انظر قصة النابغة مع النعمان بحضور حسان بن ثابت في الشعر والشعراء ص ٩٨-٩٩

[3] شوقي ضيف العصر الجاهلي ص٢٧١ ويرى شوقي ضيف : " أن سفارة النابغة لقومه في بلاطي المناذرة والغساسنة هي التي أقلت الإشارات في شعره إلى حرب داحس والغبراء إذ لم يشترك في وقائعها " ص٢٧٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَاستَبْق وُدَّكَ للصَّديق ولا تَكُنْ قَتَباً يَعَضُّ بِغارِبٍ مِلْحاحا [١]

فهو يدرك مكانته عند ملوك المناذرة ويدرك أنه امتلك ناصية اللغة ويعي بحكمته السياسية كيف يرضي النعمان بن المنذر بعد سفارته إلى الغساسنة ومدحهم كيف لا ؟ وهو يحظى عنده بمكانة مميزة بين مرتادي بلاطه الذي كان " يموج بالشعراء من أمثال أوس بن حجر التميمي والمثقب العبدي، ولبيد العامري ، ولكن أحدا لم يكرمه إكرام النابغة "[٢]، " فلم يكن ذنب النابغة عند النعمان ذنباً شخصياً ، وإنما كان ذنباً سياسياً "[٣] وما كانت معلقة النابغة واعتذاراته للنعمان بن المنذر إلا انعكاساً صادقاً للعصبية القبلية التي تضمن حقوق قبيلة النابغة من جور واعتداء في ظلّ حروب داحس والغبراء وآثارها .

ويقترب عدي بن زيد العبادي في مكانته من مكانة النابغة عندما عمل " ترجمان أبرواز ملك فارس وكاتبه بالعربية ، فلما قتل عمرو بن هند وصف له عديُّ بن زيد النعمانَ بن المنذر بن امرئ القيس ، وأشار عليه بتوليته العرب واحتال في ذلك حتى ولاّه من بين إخوته وكان أدمّهم وأقبحَهم، ثم بلغ النعمان عن عدي شيء، فخافه حتى وقع في يده ، فحبسه، فقال في الحبس أشعارا "[٤]:

أبْلِغْ النعمانَ عنّي مألَكًا أنني قد طال حبسي وانتظاري
لو بغير الماءِ حَلْقي شَرِقٌ كنتُ كالغصّانِ بالماءِ اعتصاري [٥]

وهذه المكانة العليا للفصاحة والشعر جعلت الشعراء في دوامة من الشائعات والمكائد للحظوة المميّزة التي بلغها الشعراء في قبائلهم أو في علاقاتهم مع الملوك والسادة والأشراف ونيلهم للعطايا ، مما جعل حياة بعضهم تمور بالحركة بين الملوك والأمراء كالأعشى الذي طوف أرجاء الجزيرة ونهل من أموال أشرافها ، ولكن من ناحية أخرى أزهقت أرواح كثير من هؤلاء الشعراء وقتلوا شر قتله بعدما تكالبت الأحداث عليهم ونهشتهم الأعين "[٦] .

---

[١] الشعر والشعراء ج١ ص٩٥ قتب : خشب الرحل غارب : مكان

[٢] شوقي ضيف ــ العصر الجاهلي ص٢٦٩

[٣] المرجع نفسه ص٢٧٢

[٤] الشعر والشعراء ج١ ص١٥٣

[٥] المصدر نفسه ج١ ص١٥٣ انظر الأغاني ج٢ ص١٠٦ ويقال إنه قتله بعد حبسه .

[٦] انظر قتل طرفة الشعر والشعراء ج١ ص١١٨ وعدي بن زيد ج١ ص١٥٣ عبيد الأبرص ج١ ص١٨٦ سليك بن السلكة ج١ ص٢٨٥ والمنخل اليشكري ج١ ص٣١٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

سبيل عرض ابن قتيبة
للشعراء الأربعة الأكثر شعراً

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سبيل عرض ابن قتيبة للشعراء الأكثر شعراً

شكّل شعر الطبقة الأولى من العصر الجاهلي محور اهتمام ابن قتيبة في كتابيه، فكان امرؤ القيس والأعشى والنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى الدليل الأكثر دوراناً في اختيارات ابن قتيبة، حتى صارت حركة شعرهم شمساً تدور حولها موضوعات الشعر لغيرهم من الشعراء في مختاراته ، فلا يكاد موضوع يجري حديث الشعراء فيه إلا ضَرَب هؤلاء الأربعة بأسهمهم فيه فأصابوا كبد الموضوع[١]، لذا حازت أخبارهم على اهتمام القاصي والداني من دارسي الأدب.

عرض ابن قتيبة لشعر امرئ القيس :

دارت هالة الهيبة في شعر امرئ القيس، ونالت أخباره وسيرته متابعة علماء الأدب والشعراء، لأن شعره شكلٌ مثالي يحتذيه الشعراء يقول لبيد بن ربيعة : " أشعر النّاس ذو القروح"[٢] ويستنبط من شعره العلماءُ أصولاً لصورة الفن الشعري وشكل نضجه فهم يعدّونه الرائد في قيادة الفن الشعري شكلاً ومضموناً يقول ابن قتيبة : "وقد سبق امرؤ القيس إلى أشياءَ ابتدعها، واستحسنها العرب، واتّبعته عليها الشعراء من استيقافه صَحْبَهُ في الديار، ورقّة النسيب وقُرب المأخذ" [٣] وهذا السبق يشهد له فيه أبو عبيدة معمر بن المثنى : " يقول مَنْ فضّله أنّه أوّل من فتح الشعر واستوقف، وبكى في الدّمن، ووصف ما فيها، ثم قال : دع ذا -رغبة عن الملسبة- فتبعوا أثره، وهو أول من شبّه الخيل بالعصا واللّقوةِ والسباع والظّباء والطير، فتبعه الشعراء على تشبيهها بهذه الأوصاف"[٤].

وكأن في حشد هذه الأقوال والشهادات من مواقف الشعراء والعلماء أضبطَ دليل على عظم مكانة شعره وجليل دور أخباره في استقامة عود الشعر في رأي ابن قتيبة الذي يحشد

---

(١) انظر كم الشعر وترتيب الشعراء الأكثر شعراً في التوطئة قبل الفصل الأول من هذه الدراسة.

(٢) الشعر والشعراء جـ١ ص٥٠ وانظر رأي ذي الرمة في شعر المطر عند امرئ القيس وعبيد بن الأبرص وأوس بن حجر وعبد بني الحسحاس في المطر وتفضيله لشعر امرئ القيس، وانظر خبر عبد الملك بن مروان مع الأشراف والشعراء وتفضيلهم شعره جـ١ ص٥٦.

(٣) المصدر نفسه جـ١ ص٥٤ ويقر بالسبق له عمر بن الخطاب بقوله : " سابق الشعراء، خسف لهم عين الشعر" أي حفرها حتى تفجر الماء،المصدر نفسه جـ١ ص٦٨.

(٤) المصدر نفسه جـ١ ص٦٨ انظر أثر شعره في الفرزدق ونقل الفرزدق لأخباره وشعره. وما نقله أبو النجم الهذلي عن قينة وتغنيها في أبيات امرئ القيس يؤيد مدى أثر شعره في الشعر العربي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بأولية لم يسبق منافستها في أبيات من الشعر، ويصف ابن قتيبة شدّة تأثير امرئ القيس في الشعراء الذين أخذوا عنه أجزاءً من أبيات شعره وضمّنوها لأشعارهم مع تعديلات وجيزة على الألفاظ، وهذه الأبيات المختارة بنيت على أسس المفاضلة بين اللفظ والمعنى من جهة وبين حسن التشبيه وخفة الروي ... الخ من جهة أخرى ما قدّم له ابن قتيبة في خطبة كتابه الشعر والشعراء، يقول ابن قتيبة : " وقد أجاد في صفة الفرس:

مِكَرّ مِفرّ مُقْبلٍ مُدْبرٍ معاً كَجُلْمودِ صَخرٍ حطّهُ السيلُ من عَلِ
له أيطلا ظبيٍ وساقا نعامةٍ وإرخاءُ سَرحان وتقريبُ تَتْفُلِ"[١]

وأحياناً يصرح ابن قتيبة بميزان الجودة في شعر امرئ القيس ففي قوله : "ويُستجاد من تشبيهه قوله :

كأنّ قلوبَ الطيرِ رطباً ويابساً لدى وَكْرِها العُنّابُ و الحَشَفُ البالي"[٢]

ويحشد ابن قتيبة -بعد تحكيم منهجه في الاستحسان- أشعاراً لامرئ القيس تشهد له بالسبق، وتُظهر شكل التأثير فيمن بعده، لأن كثيراً من الشعراء أخذوا معاني هذه الأشعار وزادوا في ألفاظها أو ركّبوا عليها صوراً فنية تحاكي صورة أشعاره، ولم يقتصر هذا التأثير على عصر أدبي دون آخر فقد أحصى ابن قتيبة تسعة شعراء تأثّروا بشعره -كلّهم من عصر الاحتجاج- فكان ابن قتيبة يدوّن بيتاً من شعر امرئ القيس ثم يقول أخذه فلان من الشعراء ومن هؤلاء الشعراء أوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى وطرفة بن العبد و المسيّب بن علس في العصر الجاهلي، أما عصر المُخضرَمين فقد أحصى ابن قتيبة منهم كعب بن زهير، والنابغة الجعدي والشماخ والنجاشي وزيد الخيل[٣].

وكان وصف الفرس والإبل والمرأة الحبيبة أبرز الموضوعات التي حاكى بها الشعراء امرأ القيس، وأوضح ما في هذه الأبيات حُسن التشبيه ودقّة التصوير لحظة تعدّد التشبيهات في أطراف الصورة الشعريّة داخل البيت الواحد؛ " قال امرؤ القيس يصف فرساً :

---

[١] الشعر والشعراء جـ١ ص٥٤، الأيطلان : الخاصرتان، الإرخاء : السرعة ، السرحان : الذئب، التقريب : الجريء بأن يرفع يديه معاً ويضعهما معاً التتفل : ولد الثعلب. يقول ابن قتيبة في هذا البيت جـ١ ص٧٣ : "وقد تبعه النّاس في هذا الوصف وأخذوه ولم يجتمع لهم ما اجتمع له في بيت واحد". الديوان ص ٥٢ ـ٥٥

[٢] المصدر نفسه جـذ ص٥٤ يقصد العقاب وما يحويه وكرها من أشلاء الحيوانات. قول عن ميزان جودة البيت جـ١ ص٧٣ : "شبّه شيئين في بيت واحد وأحسن التشبيه". الديوان ص ١٤٥ الحيوان ج٣ ص٥٣

[٣] انظر المصدر نفسه جـ١ ص٦٩-٧٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سليمُ الشّظى عَبلُ الشّوَى شَنِجُ النّسا له حَجَبَاتٌ مشرفاتٌ على الفالِ"[١]

وقال ابن قتيبة معجباً بهذه الظاهرة من شعر امرئ القيس: " وقد تبعه النّاس في هـذا الوصف وأخذوه،ولم يجتمع لهم ما اجتمع له في بيت واحد هو :

لَهُ أيْطلا ظَبْيٍ وساقا نعامةٍ وإرخاءُ سَرحان وتَقريب تَتْفُلِ"[٢]

ويأتي حكم ابن قتيبة على شعر امرئ القيس تأييداً لما نقلهُ من حكم في بداية ترجمته له بأنه من الطبقة الأولى، فعبارات ابن قتيبة تشي بهذا الحكم يقول"ومما انفرد به" و "يُستجاد تشبيهه"و "يُستجاد من قوله" و " هو أوّل من قيّد الأوابد" و "هو أول من شبّه الثّغر في لونه بشوك السّيال" و "أول من قال : فعادى عداءً"... و" أول من شبه الحمار بمقلاءِ الوليد وهو عود القُلّةِ وبكرّ الأندريّ والكرّ الحبل، وشبه الطلل بوحي الزّبور في العَسيب والفرس بتيس الحُلّب"[٣] .

ويكتفي ابن قتيبة في أحيان كثيرة بذكر البيت في الشعر والشعراء دون توضيح لمعانيه إلا ما ندر[٤]، وكأن شعر امرئ القيس قد اشتهر ووضحت مغاليق أسراره إلا ما اجتمع العلماء منه على الاختلاف في استحسان شعر بيت أو ذكر عيب فيه فيأتي ابن قتيبة بالفصل على منهج استحسان اللفظ والمعنى لردّ البيت أو قَبوله قبولاً حسناً، يقول ابن قتيبة ناقلاً لآراء بعض علماء الأدب : "ويُعاب من قوله :

أغرّكِ منّي أنّ حُبّك قاتلـي وأنّكِ مهما تأمُري القلبَ يفعلِ

---

(١) الشعر والشعراء جـ١ ص٧٠ انظر ما أخذه كعب بن زهير في قوله :

سليم الشّظى عبلُ الشّوى شنج النسا كأن مكان الرّدف من ظهره قصر

وأخذه النجاشي فقال :

أمين الشظى عاري الشّوى شنج النّسا أقبُّ الحَشَا مستذرعُ الندفان

الشّظا : عظم صغير في يد الفرس ، الشّوى : القوائم، النّسا : عرق وضعه بالشّنج لأنه أصلب به، الحجبات : رؤوس الأوراك، على الفال : يريد على الفائل وهو عرق عن يمين عجب الذنب ويساره، والمعنى أنه مشرف الكفل، مستذرع : عريض ، الندفان : سرعة رجع اليدين. الديوان ص١٤٣

(٢) الشعر والشعراء جـ١ ص٧٣ سبق توضيحه.

(٣) المصدر نفسه جـ١ ص٧٢+٧٣ انظر هامش المحقق وأبيات امرئ القيس فهي التي تقرّله بالأولية والإبداع في الفن الشعري. ولم يورد ابن قتيبة هذه الأبيات بل ذكرها المحقّق في هامش ص٧٢-٧٣، السدوس : الطيلسان، السيال : شجر له شوك أبيض، القلة : خشبة صغيرة تنصب للعب الصبيان، الأندري : الرجل المنسوب إلى قرية الأندر بالشام، الزبور : الكتاب القديم الكبير، العسيب : ما يكتب عليه من شجر النخيل.

(٤)انظر توضيحه لمعنى ناقف حنظل في بيت المعلقة في الشعر والشعراء جـ١ ص٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقالوا : إذا كان هذا لا يغرّ فما الذي يغرّ؟ إنما هذا كأسير قال لآسره : أغرّك مني أنـــي فـــي يديك وفي إسارك، وأنك ملكت سفك دمي ؛قال أبو محمد (ابن قتيبة) : ولا أرى هذا عيبـاً، ولا المثل المضروب له شكلاً، لأنه لم يرد بقوله "حبّك قاتلي" القتل بعينه، وإنما أراد : أنه برّح بـي فكأنه قد قتلني، وهذا كما يقول القائل : قتلتني المرأة بدلّها وبعينها، وقتلنـــي فـــلان بكلامـــه، فأراد : أغرّك مني أنّ حُبّك قد برّح بي وأنك مهما تأمري قلبك به من هجري والســـلوّ عنـــي يُطِعْكِ، أي فلا تغتري بهذا، فإني أملك نفسي وأُصبّرها عنك وأصرف هواي"[١].

ولكن ابن قتيبة لا يبقى على هذه الحال من الوقوف أمام مفهوم العيب فأحياناً يوضّـــح بشكل عَرَضي مفهومَ العيب، فالأصل فيه عنده العيب في الفن الأدبـــي مـــع تحكيـــم لمنـــهج استحسانه للّفظ والمعنى الذي يريد الشاعر توصيله بصرف النظر عن العيـــب فـــي المنظـــور الاجتماعي الأخلاقي الذي يعارض فيه الشاعر قيم المجتمع وتقاليده المرعيّة، يقول ابن قتيبـــة ناقلاً رأي علماء الأدب " ويُعاب من قوله :

فمِثْلُكِ حبلى قَـــدْ طَرَقتُ ومُرْضِعٍ ... فألهيتُها عن ذي تَمَائِمَ مُحْوِلِ
إذا ما بكى من خلفِها انْحَرفَتْ لَـــهُ ... بشقٍّ وتحتي شِقُّها لم يُحوَّلِ

قال أبو محمد (ابن قتيبة) : وليس هذا عندي عيباً، لأن المُرضِعَ والحَبلى لا تُريـــدان الرّجـــالَ ولا ترغبان في النكاح، فإذا أصبَاهُما وألْهَاهُما كان لغيرهما أشدّ إصباءً وإلهاءً "[٢].

وأحياناً يكتفي ابن قتيبة بذكر العيب دون إشارة منه إلى قَبوله أو ردّه؛ وكأنه يوحـــي لطالب العلم بضرورة القياس على ما تقدم من رأي أدلى فيه بدلوه مع تعليل لنوع العيب الـــذي يطلقه بعض العلماء على مغامرات امرئ القيس، يقول ابن قتيبة : " ويُعاب عليـــه تصريحـــه بالزنا والدبيب إلى حُرَم النّاس، الشّعراء تتوقى ذلك في الشّعر وإن فعلته، قال :

سَمَوْتُ إليها بعدما نـــام أهلُـــها ... سُموَّ حُبابِ الماءِ حالاً على حـــالِ
فقالت : سباكَ الله، إنّكَ فاضحي ... ألستَ ترى السُّمارَ والنّاسَ أحوالي
فقلت : يمين الله، أبرَحُ قـــاعِداً ... ولو قطّعوا رأسي لديكِ وأوْصالـــي
حلفْتُ لـــها بالله حِـــلْفَةَ فـــاجِرٍ ... لَناموا وما إن من حديثٍ ولا صالي

---

(١)الشعر والشعراء جـــ١ ص٧٤ وانظر رأيه في أبيات أخرى من المعلقة. الديوان ص ٣٧

(٢) المصدر نفسه جـــ١ ص٧٤. الديوان ص ٣٥ ــ ٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَـلمَّا تَنازَعْنا الحَديثَ وأسْمحَتْ هَصَرتُ بغصنٍ ذي شَماريـخَ ميَّالِ
وصِرْنا إلى الحُسنَى ورقَّ كلامُنا ورُضْتُ، فَذَلَّتْ، صعبةً إيَّ إذلالِ
فأصبحْتُ مَعْشُوقاً، وأصْبَحَ بَعلُها عـليه القَـتامُ سـيِّئَ الظنِّ والبالِ"[١]

ولعلّ هذا التفريق بين مفهوم العيب في الفنّ الأدبي وبين المعايير والعادات التي تَشيع في المجتمع قد صقل هذا المنهج ، وأضحى هذا التفريق يشقّ طريقاً فيمن بعده حتى جاء بعضهم بنظريات " الأدب للأدب " في عصور لاحقة، وقد توضّح عند ابن قتيبة ضربٌ آخر من العيب وهو عيب التصوّر الناقص لحقائق الأمور التي يناقشها الشاعر في صورته الشعرية يقول ابن قتيبة : " ومما يُعابُ عليه من شعره قوله :

إذا ما الثُّريا في السماءِ تَعَرَّضَتْ تَعَرُّضَ أثناءِ الوِشاحِ المفصَّلِ

وقالوا : الثّريا لا تَعرُض لها ، وإنما أراه أراد الجوزاء فذكر الثريا على الغلط"[٢]

فابن قتيبة حاول رَوز الشعر وتلمّس شكل الجودة التي رجّحت كفّة شعر امرئ القيس في ميزان الاستحسان لإصدار الحكم مع التعليل في شعره الحسن وفي شعره المعيب من ناحية، ورجّحت منزلة شعره قياساً إلى غيره من شعراء العصر الجاهلي أو مَن جاء بعدهم من ناحية أخرى، وما كانت له هذه المنزلة الفضلى عبثاً في رأي الباحثين فجلُّهم جاء على ذكره ومتابعة ما يتّصل به من أخبار وأشعار في مستهل مصنّفاتهم، وكذا كان هاجس ابن قتيبة في ترجمته لامرئ القيس، فأظهر عناية بتَتَبُّع أخباره واستقصاء كلّ ما يقع تحت ناظريه

---

(١) الشعر والشعراء جـ١ ص٧٤-٧٥ انظر ما كتبه هاشم ياغي وآخرون، تاريخ الأدب العربي ص٣٢ حول خلط بعض الباحثين بين مغامرات امرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة مع النظرفي بيان الفروق بين تقاليد العصر الجاهلي وشخصية امرئ القيس وبين تقاليد المجتمع الإسلامي في العصر الأموي الذي ينتمي له عمر بن أبي ربيعة. انظر الديوان ص ١٤١ ــ ١٤٢
انظر طه حسين في الأدب الجاهلي ص٢٢١ ابن سلام طبقات فحول الشعراء ص٣٥ وانظر شوقي ضيف – العصر الجاهلي ص٢٥١.

(٢) الشعر والشعراء جـ١ ص٥٦.انظر الديوان ص ٣٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ففي قصة دارة جلجل يفخر بأنه صاحب خبرة في النساء وإغوائهن، فلا ممنوع أمـلم هذا الأمير،ويكتفي ابن قتيبة بتوضيح مناسبة القصة بما تتضمنه من شعر يقول امرؤ القيس :

ويوم عقـرت للعذارى مطيتي فيا عجبا مـــن رحلها المتحمل
يظل العـذارى يرتمين بلحمها وشحم كهـداب الدمقس المفتل
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت : لك الويلات ، إنك مرجلي
تقول وقد مال الغبيط بنا معا : عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل
فقلت لها:سيري وأرخي زمامه ولا تبعدينا مـــن جناك المعلل[1]

ثم تأتي بعد هذه المرحلة مرحلة الثأر وتجميع الأحلاف من قتلة أبيه، ففي خضم هـذه المرحلة ومن بدايتها كان امرؤ القيس في لب هذه الأحداث يحركـها لحمايـة قبيلتـه كنـدة، وتحركه الأحداث بدورها لحماية والده واستمرار ملكه، ومن مجموع الأخبار التي وردت عـن سبب مقتل أبيه يحصر ابن قتيبة رواية قتله[2] بقوله : " ثم ملكت بنو أسد حجرا عليها، فسـاءت سيرته، فجمعت بنو أسد، واستعان حجر ببني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بـن تميـم، فقـال امرؤ القيس :

تميم بن مر وأشياعها وكندة حولي جميعا صبر

فبعثت بنو أسد إلى بني حنظلة تستكفها وتسألها أن تخلي بينهم وبين كندة فاعتزلت بنو حنظلـة، والتقت كندة وأسد، وانهزمت كندة وقتل حجر، وغنمت بنو أسد أموالهم، وفي ذلك يقول عبيـد ابن الأبرص الأسدي :

هلا سألت جموع كندة يوم ولوا هاربينا

---

[1] الشعر والشعراء جـ١ ص٦٦ وانظر ما سبق من شعر له في منهج الاستحسان عند ابن قتيبة مع ما ذكر من شعره المعيب. انظر الديوان ص ٣٣ ــ ٣٥

[2] انظر مجموع هذه الروايات حول مقتل والد امرئ القيس في كتاب أبيالفرج الأصفهاني – الأغاني جـ٩ ص٨٢ وقد ناقش شوقي ضيف حادثة مقتل أبيه وحال امرئ القيس من هذا القتل وموقفه منه – العصر الجاهلي ص٢٣٣-٢٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان قاتل حُجْرعلباءُ بن الحارث الأسدي،وأفلت امروُ القيس يومئذٍ، وحلف لا يغسل رأسه ولا يشرب خمراً حتى يدرك ثأره ببني أسد"[١]

ويبدو أن ابن قتيبة قد فضل عدم دعم أي رواية من هذه الروايات بل تراه حشدها مع ذكر رواتها مكتفيا بما وصله منها ولعل أخبار الشعراء الأوائل قد دخلها قصص موضوعة أشبه ما تكون بالأساطير، ولعل ابن قتيبة اكتفى بسردها دون التعليق عليها طمعا في عدم المماحكة لعدم وضوح الصورة الصحيحة عن امرئ القيس لما شاب الكثير من أخباره من وضع وتزيد وتعليل لا وجه له في المجتمع الجاهلي بشكل عام ومجتمع الأمير الخاص الذي لا يهدأ عن طلبه الثأر في كل حين.

وقد حشد ابن قتيبة الأخبار الموضوعة مع الأخبار التي يمكن أن يثق بها كثير من علماء الأخبار حتى بدا من العسير في هذا الحشد الوثوق بجميع الأخبار وما يرافقها من أشعار موضوعة حول وصول امرئ القيس إلى القسطنطينية وغزله بابنة قيصر الروم، وقصة الحلة المسمومة وآخر شعره قبيل موته وطلبه الدفن بقرب فتاة رومية[٢] "وإن كان في هذه الخرافات ما قد يستنتج منها حول وقوع امرئ القيس بين مطاردة المناذرة له وللباقين من عائلة ملوك كندة التي كانت غير متوافقة مع مصالح المناذرة، وكذلك حول وقوع امرئ القيس في خذلان القبائل التي قصدها لإعانته على الثأر لأبيه، ومن هذه الخرافة ما قد يستنتج أيضا من السياسة الدولية آنذاك بين البيزنطيين من جهة وبين الفرس من جهة ثانية"[٣].

ولم يطنب ابن قتيبة في ترجمة شاعر إطنابه في ترجمة أخبار امرئ القيس حتى من أصحاب الطبقة الأولى، فلم تكد ترجمة النابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى تصل إلى نصف ترجمة امرئ القيس، أما ترجمة الأعشى ميمون بن قيس فلم تكد تبلغ ثلث ترجمة امرئ القيس في كتاب الشعر والشعراء.

---

[١] الشعر والشعراء جـ١ ص٥٧-٥٨ هذه الرواية موجودة في الأغاني جـ٩ ص٨٣، رواها أبو الفرج عن أبي عمرو الشيباني بتفصيل أكبر، أنظر تعليق شوقي ضيف عليها – العصر الجاهلي ص٢٣٥.الديوان ص١٠٥

[٢] انظر فصل البيان في هذه القضايا التي ناقشها طويلا شوقي ضيف –العصر الجاهلي ص٢٤١-٢٤٣ انظر تفصيل هذه القصص في الشعر والشعراء جـ١ ص٥٨-٦٣.

[٣] هاشم ياغي وآخرون – تاريخ الأدب العربي ص٣٥.انظر جواد علي ــ المفصل ج٩ ص ٥٢٠ ــ٥٢٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد عرض ابن قتيبة إلى مئة وأربعة وتسعين بيتاً من الشعر لامرئ القيس، تكرّر منها أربعون بيتاً في ثنايا كتابيه الشعر والشعراء والمعاني الكبير، وأوضح ما في هذه الأبيات وصف الطبيعة بما فيها من حيوان، وقد برز منها وصف الخيل الذي حاز على ستين بيتاً من مجموع خمسة وسبعين بيتاً في وصف الطبيعة ، ولَعل جلّ هذه الأبيات يدور حول ما ورد من وصف خيل امرئ القيس في معلقته من سرعة في الجري فلا يُجاريها مُجارٍ، أو ينافسها في سرعة الانقضاض مُبارٍ، وهي خيل مكتملة الحلق، تكفيها طرف إشارة لتفعل فِعلها في الأعداء، ويُخيّل لمن رآها أنها تكرّ وتفرّ في آن واحد، ولا تأتي هذه القوة عبثاً بل تجتمع فيها صفات القوة المادية التي تمور بالأصالة وتتكامل أجزاء هذه الخيل لتوفّر لها الحيوية والجمال في كل أجزاء جسمها، حتى أنّ امرأ القيس لم يترك جزءاً من جسمها إلا وأشبعه وصفاً وتصويراً يقول امرؤ القيس :

سليمُ الشّظى عَبلُ الشّوَى شَنِجُ النّسا له حَجَبَاتٌ مشرفاتٌ على الفالِ" [١]

يقول ابن قتيبة مفسّراً : "الشّظى : عظم لاصق بالذراع، فإذا تحرك قيل شظي الفرس، شنج النّسا : قصيرُه، والنّسا : عِرق مُستبطن الفخذين حتى يصير إلى الحافر فإذا هَزلت الدّابة ماجت فخذاه فخفي، وإذا سَمِنت انفلقت فجرى بينهما واستبان كأنه حيّة، وإذا قَصُر كان أشدّ لرجله ... والحَجَبَات : واحدتها حَجَبَة وهي رأس الورك التي تشرف على الجاعرة، والفال عرق يخرج من فوّارة الورك ، يقول : قد أشرفت حجبته على هذا العرق"[٢].

ويُظهر هذا الوصف التشريحي مدى عناية امرئ القيس وابن قتيبة في تتبع مظاهر الأصالة شعراً ونثراً في جسم الخيل، وهذه الصورة تتكرّر كثيراً في تصوير أجزاء أخرى من جسم الخيل مثل : الأذن وما يُحمدُ من رِقّتِها وانتصابها[٣]، والناصية وما يُحمد من سُبوغها[٤]، والخدّ وما يحمد من أسالته وملاسته ورِقّتِه[٥] والعين وما تُوصَف به مِن سَعة[٦]، والمنخر وما

---

[١] الشعر والشعراء جـ١ ص٧٠، المعاني الكبير جـ١ ص١٥١ عبل : ممتلئ ، الشوى : القوائم والمعنى أنه مشرف الكفل. انظر الديوان ص ١٤٣

[٢] المعاني الكبير جـ١ ص١٥١.

(٣) المصدر نفسه جـ١ ص١١٤.

(٤)المصدر نفسه جـ١ ص١١٦ و ص١١٧.

(٥)المصدر نفسه جـ١ ص١١٩.

(٦)المصدر نفسه جـ١ ص١٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يُحمَد من سَعَته[١]، والأفواه وما يُحمَد من هِرَتها والأسنان[٢]، والعنق وما يُحمَد من طُولها[٣] والصدر وما يُحمَد منه[٤]، والجنب والجوف وما يُحمَد من إجفاره مع انطواء الكَشْح[٥]، والظّهر والقَطاة والمَتن[٦]، والذَّنَب وما يُوصَف به من طول[٧]والعجُز والفخذان[٨] والقوائم[٩] والأرساغ وما يُحمَد من حجمها ويُبسها وغِلظها[١٠] والحوافر[١١].

وكان ابن قتيبة يستهلُّ ما في جُعْبَتِه من أبيات المعاني حول وصف الخيل بأبيات امرئ القيس على نحو مميّز، فلم يكد باب من الأبواب السالفة الذكر أن يخلو من مساهمة لامرئ القيس فيه، وقد كان امرؤ القيس الرائد في مستهل ما اختاره ابن قتيبة فيما يقارب من ثلث الأبواب المذكورة وتأتي المختارات الأخرى لتساعد بيت امرئ القيس في توضيح التصوير، وكأنّ الأبيات الأخرى تسير في فلك شِعر امرئ القيس وتحاول الاقتراب من هالة الشهرة التي وصل شعره بمحاكاته في اللفظ أو المعنى أو شكل التشبيه، وابن قتيبة في كتاب المعاني الكبير حين يجد هذه الظاهرة يكتفي بقوله : "ومثله لفلان من الشعراء".

وتأتي السرعة في الجري في مرتبة ثانية بعد الوصف في مختارات ابن قتيبة لشعر امرئ القيس، ويصوّر امرؤ القيس السرعة بمحاور عدّة، ويُعَدُّ الجري في المعارك وفي سرعة الانقضاض على الطرائد أو حتى في مجال السباق عليها من أبرز مظاهر السرعة البارزة في شعر امرئ القيس، وقد يُرافق وصف سرعة الجري وصف آثارِ الجري على الخيل من نواحٍ ماديّة كالعرق وشِدّة النَفَس وسَعَة المنخرين، ومن نواحٍ معنوية كوصف نزق الخيل وعنفوانها، يقول امرؤ القيس :

---

(١) المعاني الكبير جـ١ ص١٢٣.

(٢) المصدر نفسه جـ١ ص١٢٥.

(٣)المصدر نفسه جـ١ ص١٢٦-١٢٧.

(٤)المصدر نفسه جـ١ ١٣٧.

(٥)المصدر نفسه جـ١ ص١٤١.

(٦)المصدر نفسه جـ١ ص١٤٤.

(٧)المصدر نفسه جـ١ ص١٤٩ و ص١٥٠.

(٨)المصدر نفسه جـ١ ص١٥١ و ص١٥٤.

(٩)المصدر نفسه جـ١ ص١٥٨ و ص١٥٩.

(١٠)المصدر نفسه جـ١ ص١٦٤ و ص١٦٥.

(١١)المصدر نفسه جـ١ ص١٦٦ وص١٦٧. اختار البحث نفس التسمية الواردة في كتاب المعاني الكبير.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"فعادى عداءً بين ثَورٍ ونَعجةٍ دِراكاً ولم يَنْضِحْ بماءٍ فيُغْسَلِ

يقول ابن قتيبة : والنّاس يَغْلَطون فيروونَه يُنضَح ... وعادى والى بين اثنين ولم يرد بقوله ولم يَنْضِح أنّ العرق مكروه، ولكنّه أراد سرعة إدراكه إياهما وأنّه عقرهما قبل أن يعرق ... ومثل هذا قوله :

فأدركَ لم يعرقْ مَناطَ عِذارِهِ يمرُّ كخُذْرُوفِ الوليدِ المُثَقَّبِ"[١]

ويقول في موضع آخر :

لها وَثَباتٌ كَصَوبِ السَّحابِ فوادٍ خطيطٌ ووادٍ قطِرْ[٢]

ويجيء ابن قتيبة على صور شتّى لامرئ القيس في تشبيه سرعة جري الخيل ومنها تشبيهه بالظبي والنعامة والذئب والثعلب[٣] والعقاب[٤] ولهذه السرعة ضَرب من النَّزَق يصعُب السيطرة على الخيل في جموحها عن القياد، يقول امرؤ القيس :

فظلْتُ وظلّ الجَونُ عندي بلَبدِهِ كأنّي أعدّي عن جَناحٍ مُهيَّضِ
أخفّضهُ بالنّقرِ لمّا علَوتُه ويرفَعُ طرفاً غير جافٍ غضيضِ[٥]

فامرؤ القيس يبقى ملازماً فرسه مع ما يجده من نزقه، وحاله في هذا كحال الجناح المكسور من الطير، ولكنّ امرأ القيس فارس يجيد التعامل مع الفرس الأصيلة الجامحة التي تنظر له بعين الغضب لما يحمّلها من شدّة النقرِ بطَرَف اللّجام حتى تسْكُنَ وتجريَ بالطريقة التي يريدها[٦].

---

(١)المعاني الكبيرجـ١ ص١٢-١٣ الخذروف : لعبة للصبيان سريعة الدوران تربط بحبل. الديوان ص١٤٤

(٢) المصدر نفسه جـ١ ٢٠ الخطيطة : أرض لم تمطر بين أرضين ممطورتين والمعنى : يستحب سعة شجوة الفرس فجعل شجوته وهي بين حافريه من الأرض خطيطاً وموضع الحافر غيثاً ويروى خطاءً أي يخطو وادياً ويعدو واديا.انظر الديوان ص ١١٣

(٣)المصدر نفسه جـ١ ص٣٣.

(٤)المصدر نفسه جـ١ ص٣٧.

(٥)المعاني الكبير جـ١ ص٥٧. انظر الديوان ص ١٢٧

(٦)المصدر نفسه جـ١ ص٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتأتي المرأة في شعر امرئ القيس ضمن مختارات ابن قتيبة في الدرجة الثانية وقد سبق الحديث عنها في ترجمة امرئ القيس عند ابن قتيبة في الشعر والشعراء [١] وقد اختار ابن قتيبة ستةً وثلاثين بيتاً من الشعر يدور جلُّها حول التشبيب بالنساء ووصف مغامرات امرئ القيس معَهنّ.

ثم تتشكّل صورة الحرب والمطالبة بالثأر بشكل فردي في الشعر والشعراء، ولم يأت ابن قتيبة في مختاراته ضمن كتابه المعاني الكبير إلا صورة لمحات من الحرب وبشكل خاص على أسلحتها الدفاعية كالدّرع ،حيث يقول امرؤ القيس في وصفها :

إلى مثلِها يَرنو الحليمُ صبابةً إذا ما اسبكرّتْ بين درع ومجولِ[٢]

ويكاد المعاني الكبير يخلو من دورة حياة امرئ القيس الثانية في مطالبة الثأر وعزوفه عن حياة اللهو بالنساء وصيامه الأبدي عن شرب الخمر، ولعل سبب ذلك كون أبيات المعاني في هذه الدورة من حياة امرئ القيس نادرة أو مشكوك في صحة نسبتها إليه.

---

[١] انظر شعر امرئ القيس في الفصل الأول ضمن المرأة الحبيبة.

[٢] المعاني الكبير جـ١ ص١٠٣٨ آثر البحث عدم الخوض في روايات ثأر امرئ القيس لأبيه وأعمامه لما خالطها من خرافات نقضها د.شوقي ضيف في كتابه العصر الجاهلي ص٢٣٥. انظر الديوان ص ٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عَرْض ابن قتيبة لشعر الأعشى (ميمون بن قيس)

استغلّ ابن قتيبة في اختياراته لشعر الأعشى التعدّد الكبير المتاح في موضوعات شعره،وعرضه في معظم أجزاء كتابه المعاني الكبير نظراً لكون الأعشى" يمتاز بكثرة تصرُّفه في فنون الشعر من مديح وهجاء وفخر ووصف وفخر ووصف وخمر وغزل "[١]
ويقال فيه " الأعشى رابع الشعراء المتقدمين وهو يقدّم على طرفة؛ لأنه أكثر عددِ طوالِ جيد، وأوصف للخَمر والجُمُر، وأمدحُ وأهجى"[٢].

ولا يكتفي ابن قتيبة بسوق آراء علماء الأدب في مكانة الأعشى، ولكن يُخْبر عنه بقصص تفيه حقّه وتبرز ملكته الشعرية في فن المدح، فهو شاعر مطبوع، وقد سبق الحديث في موضوع سابق الرأي في تفضيل ابن قتيبة للشعر المطبوع لما يُظْهر من إبداع صافٍ يدلّ على قريحة شعرية مميّزة، فبعد أن قال في مدح النعمان بن منذر [٣]:

" أنتَ خيرٌ مِن ألفِ ألفٍ من النّا سِ إذا ما كَبَت وُجوهُ الرّجال

وقال له النعمان بن المنذر : لعلّك تستعين على شعرك هذا؟ فقال له الأعشى: احبسني في بيت حتى أقول، فحَبَسَه في بيت، فقال قصيدته التي أوّلها:

أأزمعتَ من آل ليلى ابتكارا وشطّت على ذي هوىً أن تُزارا

وفيها يقول :

وقيّدني الشعر في بيته كما قيّدَ الآسِراتُ الحِمارا [٤]

---

[١] شوقي ضيف- العصر الجاهلي ص٣٤٨

[٢] الشعر والشعراء جـ ١ ص ١٨٤

[٣] وفي رواية أخرى يذكرها محقّق الشعر و الشعراء هو قيس بن معد يكرب الكندي.

[٤] الشعر والشعراء جـ١ ص ١٨٠-١٨١ سبق توضيحه في الحكمة ومساربها ضمن الجزء المخصّص بدور الشعر ومكانة الفصاحة . انظر الديوان ص١١ ص٤٥ ص٥٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلّ فيما حشده ابن قتيبة من أخبار وأشعار في تميّز الأعشى هو أوضح طريق لتأكيد منهجه في الاستحسان، وأن ما توصل إليه من استحسان أشعار أو رفضها هو تأييد للمنهج الذي استنّه في مقدمة الشعر والشعراء بوصفه إخبارياً، وليس أدلّ على هذا المنهج من قصّة توجّه الأعشى إلى النبي صلى الله عليه وسلم،ولكنّ أبا سفيان رغّبه بمئة من الإبل الحمراء ورهّبه من تحريم الخمر والزنا والقمار إذا اتّبع دين الإسلام وحتى يقنع قريشاً بضرورة إغراء الأعشى بالمال الصحيح حتى لا يتّبع محمّداً- عليه الصلاة والسلام- قال لهم: " يا معشر قريش، هذا أعشى قيس، وقد علمتم شعره، ولئن وصل إلى محمّد ليُضَرّبنّ عليكم العرب قاطبة بشعره، فجمعوا له مئة ناقة حمراء فانصرف"[١] .

ويستشفّ قارئ القصّة مدى شهرة الأعشى، وإجادته لفني الهجاء والمدح، مع بيان واضح لمحبته الشديدة للمال وطمعه الشديد حتى أنه بعد إقناع أبي سفيان له، كرّر رغبته الرجوع في العام اللاحق لملاقاة النبي حتى يغري قريشاً بدفع المزيد في العام القادم وتثبيت حقّه بالمئة التي فاوضه عليها أبو سفيان، وكأنّ ابن قتيبة يوحي بهذه القصة ما اتّصف به الأعشى بأنه أول من جاهر بالاستعطاء و طلب الأموال في أسفاره التي طاف بها الجزيرة العربية[٢].

ويأتي بعدها ابن قتيبة على وصفه بصنّاجة العرب " لأنه أوّل من ذكر الصّنج فقال :

ومستجيبٍ لصوتِ الصّنْجِ تَسْمَعُهُ إذا تُرَجّعُ فيه القَيْنَةُ الفضُلُ[٣]

وتوحي هذه التسمية أيضاً بمجالس اللهو التي تعَجُّ بالقيان وشرب الخمر والعزف على آلات الطرب، فكان الأعشى ومن قبله امرؤ القيس من رواد هذه المجالس يشيرون بطبيعة الحياة الاجتماعية ،وطبيعة الطبقة التي ترتاد هذه المجالس، وكأن ابن قتيبة يرسم أطراف البيئة الاجتماعية الخاصة التي كوّنت شخصية الأعشى وجعلته يستجيب بردّ فعلٍ مُغاير لحال قبيلته

---

(١) الشعر والشعراء جـ١ ص ١٧٩ انظر تفاصيل القصة ص ١٧٨ ١٧٩ وهناك رواية أخرى تعبّر عن رفضه وإغراقه بالوثنية وما يرافقها أحياناً من شرب الخمر والزنا فقال:" أتمتّع منهما سنةً ثم أسلم "

(٢) ولعل هذه الحال الوثنية تزيدها الرغبة الجامحة في الاكتفاء الاقتصادي فقال ابن سلام عنه في طبقات فحول الشعراء ص ٥٤ :" إنه أوّل من سأل بالشعر واستجدى بالقريض"

(٣) الشعر والشعراء ج١ ص١٨٩. ويعلق المحقق على هذا البيت : "وقيل إنه سمي كذلك لجودة شعره، والبيت من معلقته". انظر الديوان ص٥٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي تتوالى الحروب عليها بالسفر بعيداً عن جوّ الحرب الذي طالما طارد الأعشى وجعلهُ يفرُّ من الموت في أكثر من خبرٍ يسوقُهُ ابن قتيبة لتصوير بيئته الاجتماعية، ويقول ابن قتيبة : "ولما قال الأعشى في علقمة بن علاثة :

عَلْقَمَ ما أنتَ إلى عامر الناقضِ الأوتارِ و الواترِ

نَذَر علقمة دمَه ، فخرج الأعشى يريد وجهاً، فأخطأ به دليلُه، فألقاه في ديار بني عامر بن صعصعة، رهط علقمة فأتوه به، فقال :

أعلقمَ،قد صيّرتني الأمورُ إليكَ، وما أنتَ لي منقصُ
فهبْ لي ذُنوبي فَدَتْكَ النُّفوسُ ولازلتَ تَنْمي ولا تَنْقُصُ "[1]

ولم يختر ابن قتيبة البيت السابق ــ في بداية الخبر ــ إلا لما شاع فيه من حدّة في الهجاء الذي يأتي تعريضاً تتّسع دائرة الاحتمالات السيّئة في تأويله، ويصبح المهجوّ مداراً لشكوك لا تنتهي في ماهيّة الأسباب التي تصدُّ وجيهاً عند قومه من الأخذ بالثأر كي يلبي نداء العصبية اللحوح، ولا يقوم بهذا الدور إلا الشاعر المجيد لفنون القول.ولا أدلَّ على جودة شعره من طبيعة ردّ الفعل الذي قام به علقمة عندما هدر دمه .

ويجسّد ابن قتيبة هذه الأهمية البالغة لشعر الأعشى، من رواية خبر حول اهتمام العلماء بشعره وروايته بشكله الصحيح دون إخلال في المعنى أو وقوع في تصحيف، يقول ابن قتيبة : "ولم تختلف الرواة في ألفاظ بيت اختلافها في بيت له، هو :

إنّي لعَمرُ الذي حَطّتْ مَناسِمها تُحدى وسيق إليها الباقرُ العَتَلُ"[2]

وما كان هؤلاء الرواة ليختلفوا في شعر شاعر مغمور ، أما إذا كان في شعر شاعر من أصحاب الطبقة الأولى ؛ فالجُهد يهون في سبيل تصحيح التصحيف. أو في إيراد معنى محتمل أو شَكل لفْظ يغير المعنى إلى معنى جديد يشهد لصاحبه بالسبق؛ ولهذا ينقل ابن قتيبة تفسير أبيات الأعشى عن راويه "عبيد" الملازم له في أسفاره "قال : قلت للأعشى ماذا أردت بقولك :

---

(١)الشعر والشعراء جـ١ ص١٨٢. الناقض : الأخذ بالثأر ، الأوتار : جمع وتر وهو الثأر. الواتر : الذي يترك ثأره في الأعداء فلا يستطيعون نقده. انظر الديوان ص١٤١ ص ٣٦٩

(٢) الشعر والشعراء جـ١ ص١٨٦. انظر الديوان ص٥٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَ مُدامةٍ ممّا تُعتّقُ بابلٌ كدمِ الذّبيحِ سلَبْتُها جِرْيالَها

قال : شربتها حمراء ، وبلتها بيضاء ، والجِريال : اللون"[١] فهذا الاهتمام من الخبرين الآنفي الذكر بتفسير شعر الأعشى وتصوير المعنى بشكله الصحيح يدلّ على العناية اللغوية المميزة التي يحملها معجم الأعشى الذي يزخر بالمفردات التي جاءت للأعشى من تكرار سفره في أصقاع الجزيرة حتى تناهى إلى شعره ألفاظ فارسية يحاول ابن قتيبة تعليل سبب ورودها في شعره بروايته خبر وفود الأعشى على ملوك فارس[٢] .

ويُورد ابن قتيبة الشعر الذي أبدع فيه الأعشى بعد تقديمه على طَرَفَة إيذاناً بتعليل كونه رابع الشعراء المتقدمين ، ويختار ابن قتيبة أشعاراً تُلمح إلى هذا الفرق نظراً لسهولة لألفاظ ودقّة تصوير المعاني مع تصريح بالمبالغة التي لا تنفكّ تسترعي انتباه القارئ أو السامع لشعره وبما تحويه من تشبيه جميل اعتمده ابن قتيبة في منهج الاستحسان عنده. يقول ابن قتيبة : "ومما سبق إليه فأخذ منه قوله :

كأنّ نعامَ الدوِّ باضَ عليهمُ إذا رِيعَ يوماً للصَّريخِ المُنَدَّدِ

وقال سلامة بن جندل وهو جاهليّ :

كأنّ نَعامَ الدوِّ باضَ عَليهمُ بِنِهْيِ القِذَافِ أو بِنِهْيِ مُخَفَّقِ "[٣]

---

[١] الشعر والشعراء جـ١ ص١٨٠. سيأتي تفصيل تحكيم النابغة الذبياني بسوق عكاظ وتفضيله شعر الأعشى على غيره ليثبت مكانة الأعشى بين معاصريه من الشعراء أنظر في تفاصيلها في ترجمة الخنساء جـ١ ص٢٦١. انظر الديوان ص ٢٧

[٢] أنظر هذا الشعر وغيره في الشعر والشعراء جـ١ ص١٧٩-١٨٠ ولعل هذه الأخبار والأشعار تشي بالمعرفة اللغوية الواسعة التي صقلت منهج ابن قتيبة في الاستحسان مما جعلته يتلقط كل خبر يختلط الشعر فيه بألفاظ غير دقيقة المعاني أو هنالك اختلاف في تصحيف وبحاجة إلى حكم ذي‌مراس يؤيد الاحتمالات المقبولة ويردّ غيرها. وانظر حكم شوقي ضيف –العصر الجاهلي ص٣٦٤ حول رفضه جميع الأبيات التي أوردت بها ألفاظ فارسية من عمل المنتحلين . وانظر تعليله في رفض قصة السموأل مع امرئ القيس الواردة في شعر الأعشى ص٣٤٦ انظر تفاصيل هذه القصة المنحولة في الشعر والشعراء جـ١ ص١٨٢-١٨٣.

[٣] الشعر والشعراء جـ١ ص١٨٤ المنند الذي رفع به للصوت النهي : الغدير قذاف ومخفق موضعان وانظر بيت زيد الخيل في هذا المعنى ص١٨٥. انظر الجاحظ ــ الحيوان ج٤ ص ٣٣٨ ــ ٣٣٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والغريب في الخبر أن ابن قتيبة لا يصرّح سوى بالسبق أو بالجودة المبهمة لبيت الأعشى دون تعليل أو تطبيق لمنهجه،كما يلاحظ في قول ابن قتيبة : "ويُستحسن قوله في سكران :

فَرَاحَ مَكِيثاً كأنّ الدَّبا يَدِبّ على كلّ عَظمٍ دبيباً "[١]

ولعلّ وضوح المعاني مع المبالغة في تصوير آثار الخمر على شاربها هو ما كفّ ابن قتيبة عن الإفصاح عن سبب استحسانه، وتتكرّر هذه الظاهرة في استحسانه لأبيات الأعشى في غزله بامرأة جميلة فاق جمالها جمال روضة تزفل بالحيوية والخضرة، يقول ابن قتيبة : "وأحسنُ ما قيل في الرّياضِ قولُه :

ما روضةٌ من رياضِ الحَزْنِ معشبةٌ خضراءُ جادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ
يضاحكُ الشمسَ منها كوكبٌ شرقٌ مؤزّرٌ بعَميمِ النّبتِ مُكتَهِلُ
يوماً بأطيب منها نشرَ رائحةٍ ولا بأحسن منها إذا دنا الأُصُلُ "[٢]

وكأن صيغة التفضيل والمقارنة بين حيوية المحبوبة وحيوية الروضة وطغيان المحبوبة رغم ما يُغري من مميزات الروضة هو سبيل الاستحسان الواضح في ذهن ابن قتيبة عندما استخدم التفضيل "أحسن ما قيل" رغم تضمين الأعشى المعنى في أكثر من بيت فلم يكتمل المعنى إلا بتمام البيت الثالث[٣].

ولكن ابن قتيبة إذا شعر بغياب المعنى رغم استحسانه للبيت الذي يذكره، قام بتوضيح المعنى دون إفصاح عن وجه الاستحسان ،فالمعنى هو بحقّ ما يشغل بال ابن قتيبة ومنه ينطلق في حكمه،وهذا ما يظهر في غير موضع كما في قوله :"ويُستحسن له قوله في الخمر :

---

(١)الشعر والشعراء جـ١ ص١٨٦.

(٢) المصدر نفسه جـ١ ص١٨٦ الحزن : روضة مرتفعة المكان مسبل هطل : كثير الأمطار ، كوكب الشرق : نوع من الشجر متفتح الورود مرتوٍ بالماءِ ، عميم مكتهل : الكثرة والتمام في الخضرة . الأصل : قبل غروب الشمس.

(٣) يقول شوقي ضيف عن هذه الظاهرة في كتابه العصر الجاهلي ص٣٦٥ " وهذا التضمين في شعره أكثر من أن تمثل له ... والمهم أنه يدل على انفكاك التعبير عنده، فهو لا يتمّه في البيت، بل يتمه في بيت ثان أو أبيات، ولعل هذا هو سبب كثرة صيغة التفضيل التي اشتهر بها في شعره، وذلك أنه حين يبتغي تفضيل شيء على شيء يجعل المفضّل عليه مبتدأ منفياً بما، ثم استرسل في وصفه حتى إذا استوفى فأراد من هذا الوصف جاء بخبر المبتدأ "

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تُريكَ القَذَى مِنْ دُوْنِها وهي دُونَه إذا ذاقها مَن ذاقها يتمَطْقُ

يريد : إنها من صفائها تُريكَ القَذاةَ عاليةً عليها، والقذاةُ في أسفلها"[١]

وكأن ابن قتيبة في هذا يعلن أن المنهج الذي استنّه لنفسه قد طبّقه على الشعر المختار دون تعليل لسبب الاستحسان أولاً، أو تراه انشغل باختيار أكبر قدر ممكن من شعر الشاعر وأخباره مما يتيح تكوين صورة تليق بشهرة الشاعر عند علماء الأدب واللغة، ولو أشغل ابن قتيبة نفسه في تعليل جميع ما استحسن لجميع الشعراء لأفنى وقتاً وجهداً ولتضاعَف حجم كتابه مرّات عدّة، ولكن هذا لا يعطيه العذر كله فقد كان يأتي على أبيات امرئ القيس ويذكر حُسن التشبيه مثلاً ليظهر ميزان استحسانه وقد خفي برأيه فلا يدري القارئ أكان الاستحسان من رأي ابن قتيبة أم هو ممن نقل عنهم من العلماء.

أمّا في أخبار العيوب أو ردّها فيظهر ابن قتيبة في شكل مغاير في نظرته لمظاهر الاستحسان، ويبدو مدافعاً أحياناً عن الأعشى في مواطن كما يظهر مبيناً لمثالب أشعاره في مواطن أخرى حتى يبقى في صورة موضوعية بعيدة الانحياز عن القديم وأخباره وأشعاره، فها هو يرفض أشعاراً للأعشى ويصفها بأنّها سقيمة تأخّر معناها وتأخّر لفظها حتى قال عنها في نهاية الأبيات إنّ "هذا الشعر منحول ولا أعلم فيه شيئاً يستحسن"[٢] في قوله :

إن محلاً وإن مرتَحَلا وإن في السفر ما مضى مهلا
استأثر الله بالوفاءِ وبالحمدِ وولّى الملامةَ الرّجلا
والأرض حمالةٌ لما حمّل الله وما أن تَرُدّ ما فعلا
يوماً تراها كشبه أرديةِ العصب ويوماً أديمها نَغِلا

وكأن هذه المعاني الإسلامية لا تروق لابن قتيبة فهي بعيدة كل البعد عن روح الأعشى الجاهلية كيف لا وهو قد ساق خبراً آخر حول رفضه الذهاب إلى النبي عليه الصلاة والسلام

---

(١)الشعر والشعراء جـ١ ص١٨٥. انظر الديوان ص٢١٩

(٢) المصدر نفسه جـ١ ص١٥. انظر الديوان ص ٢٣٣ انظر جواد علي ــ المفصل ج ٩ ص ٥٧١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعدما سمع ما يحرّمه من خمر وزنا وقمار واكتفى بمئة من الإبل وكانت وفاته بعد هذه الحادثة بقليل[١] .

وابن قتيبة في مواطن أخرى في ميزان حُكْمه على شعر الأعشى المعيب يذكر من الضرب الذي [تأخّر معناه وتأخّر لفظه] قول الأعشى :

"وقد غدوتُ إلى الحانوتِ يَتْبَعُني شاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ

وهذه الألفاظ الأربعةُ في معنى واحد، وكان قد يستغني عن جميعها، وماذا يزيد هذا البيت إن كان للأعشى أو ينقص"[٢].

وكان هذا التعليق من ابن قتيبة ــ في المقدمة من كتابه الشعر والشعراء ــ إنصافاً لبيت الأعشى، ولتَبقى مكانة شعر الأعشى المميّزة التي يوحي بها الجزء الأخير من تعليقه موضع الثقة والاحترام وتستحقّ الدفاع عنها وبيان مغاليق معانيها وجمال بواطنها، حاول ابن قتيبة ردّ العيب عن بيت من شعره يقول فيه مادحاً ملك الحيرة :

"ويأمر لِليَحمُومِ كلَّ عشيةٍ بقتٍّ وتعليقٍ فقد كان يسلقُ

واليحموم : فرس. وقالوا : هذا مما لا يُمدح به رجلٌ من خِساس الجنود، لأنه ليس من أحد له فرسٌ إلا هو يعلفه قتّاً ويَقْضِمُهُ شعيراً، وهذا مديح كالهجاء!... ولستُ أرى هذا عيباً، لأن الملوك تُعِدُّ فرساً على أقرب الأبواب من مجالسها بسرجه ولجامه خوفاً من عدوٍّ يفجَؤُها، أو أمرٍ ينزل، أو حاجة تعرض لقلب الملك، فيريد البدار إليها فلا يحتاج إلى أن يتلوّم على إسواج فرسه وإلجامه، وإذ كان واقفاً غُدْيَ وعُشَيَ، فوضع الأعشى هذا المعنى، ودلّ به على مُلْكِه و حزمه"[٣]

---

[١] انظر ناصر الدين الأسد – مصادر الشعر الجاهلي ص٢٣٨، شوقي ضيف –العصر الجاهلي ص٣٤٠-٣٤٥. ففيها بيان للمعاني الإسلامية والمسيحية التي جاءت من راوي الديوان يحيى بن متى أو يونس بن متى وما زاده من بعده رواة الكوفة على ديوانه مع تنقيح لجميع هذه الروايات وبيان الفاسد المنحول من شعره.

[٢] الشعر والشعراء جـ١ ص١٧ وانظر في ترجمة الأعشى ص١٨٥ ما ورد حول هذا التعليق فقد اكتفى بالجملة الأولى منه. انظر الديوان ص٥٧

(٣)المصدر نفسه جـ١ ص١٨٥. انظر الديوان ص٢١٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن هاتين الروايتين يظهر نقد ابن قتيبة نابعاً من جوف النّص فما حَسُن معناه بإعمال العقل مدحه وأثنى على صاحبه خيراً، وأما إذا ساء معناه ولفظه أصدر ابن قتيبة حكمه على هذا البيت أو غيره بالرفض موضّحاً سبب ردّه، بصرف النظر عن مكانة صاحبه مع حذر شديد بشعر أصحاب الطبقة الأولى.

ولم يأت ابن قتيبة على قبيلة الأعشى بلي سعد بن ضُبيعة في شيء بل اكتفى بذكر حادثة مقتل والده "قيس" الذي "يُدْعَى [قتيل الجوع] وذلك أنه كان في جبل فدخل غاراً فوقعت صخرة من ذلك الجبل، فسدّت فَمَ الغار، فمات فيه جوعاً"[١] ولم يتحدث ابن قتيبة عن بيئة الشاعر الاجتماعية في قبيلته أو في عائلته، وكانت الأخبار كلها تدور حول الأعشى وما تميّز به شعره الذي دار حول موضوعات الخمر والحرب والمدح والهجاء وما تُوجِده الصحراء من بيئة تملؤها المعاناة في مظاهر الحياة المختلفة وتندغم فيها صورة المرأة ومجالس اللهو، فكلّ هذه الموضوعات ساهمت في بناء تجربة الأعشى كما تشي بها مختارات ابن قتيبة في تضاعيف كتابيه.

وقد كان نصيب الأعشى من هذه المختارات مئة وتسعين بيتاً من الشعر تكرّر منها خمسة عشر بيتاً أكثرها في الخمر والنساء، ولعل أبرز شكل من شعره يرتبط بالمبالغة في رسم الوصف الدقيق، ولعل هذا الخيال الحَضري الذي يعتني بتصوير أدقّ التفصيلات في وصف الخمر ومجالسها ودنانها وساقيها وقداحها ولونها ومفعول شربها مع إلمام واسع بجودة الخمر من بائعيه الذين يختمونه بوسمهم الخاص، حتى أن ابن قتيبة أفْرد له ثلث ما اختار من شعر يدور حول الخمر ومجالسها يقول الأعشى :

وصهباءَ طافَ يَهوديُها ... وأبْرزها وعَليها خَتَمْ
وقابَلها الرّيحَ في دنّها ... وصلّى على دنّها وارْتَسَمْ[٢]

---

[١] الشعر والشعراء جـ١ ص٧٨ ويذكر ابن قتيبة أن الأعشى كان يكنى " أبا بصير " دون تعليل منه لذكر الشيء والقصد ضدّه حول هذه الكنية بل تجاوز هذه الكنية وذكر أنه أعمى، فهل تراه قصد أنه عمي آخر عمره؟ أم قصد ذكر الخبر على إطلاقه.

[٢] المعاني الكبير جـ١ ص٤٤٧، صلى : دعا لها بالبركة وارتسم من الرسم على دنّها. انظر الديوان ص٣٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أورد ابن قتيبة أبياتاً يستنفد فيها الأعشى خياله في الربط بين ما يُنهي الممدوح من شرب قداح الخمر، وبين من يُجهز عليهم في المعركة وهي صورة جديدة يقول في بيت منها :

رُبَّ رِفدٍ هَرَقْتُهُ ذلكَ اليو م وأسرَى من مَعشَرٍ أقتالِ[١]

أما في بيئة الحرب فيورد ابن قتيبة أشعاراً تعبر عن أركان النظرة إلى الحرب في العصر الجاهلي فمن نداء العصبية القبلية الذي يخضع له الأعشى مصوّراً حيوية قومه بشجاعتهم وتحمّله لجميع الآثار التي تلحق بالقبيلة[٢]، فإلى وصفه الخيل المشاركة في الحروب،[٣] فإلى ما تبثُّه الحرب من سموم على اختلاف طبقات النّاس وتصوير ما تجرّه عليهم من ويلات تُحتّم على بني البشر كرهَها ونبذَ مَن يدعون إليها[٤].

يقول الأعشى في امتثاله للعصبية الحربية في حال الدفاع عن القبيلة ومقدّراتها واصفاً شجاعة فرقة من جيش قومه :

وفيلق شهباء ملمومة تعصف بالدارع والحاسر[٥]

وهذه المبالغة في تصوير الهلاك تدعو للهلع من هذه الفرقة فكيف الشأن من قتال باقي أجزاء الجيش؟ فهذه الفرقة مهما لاقت من شجاع يرفع غطاء الرأس [البيضة] أو مَن يحتمي بدرع ثخينة فمصيرهما سواء، وهذا التصوير حرّك الدفّة عند ابن قتيبة في اختيار شعر الأعشى ليصور الشكل الحربي من الناحية النفسية التي تدُبّ الحياة في الجيش، وتهدم آثار أيّة معنويات في جيش الأعداء، حتى أنّهم إذا فوجئوا بغارة على أنعامهم أناخوها وقاتلوا دونها في قوله

---

(١) المعاني الكبير جـ٢ ص٨٨٦ ' الأقتال : الأعداء وأحدهم قتل، ويقال الأمثال والرفد : القدح الكبير، والمعنى أنك قتلت صاحبه فذهب وبطل '. انظر حول الخمر ومجالسها ومفعول شربها جـ١ ص٤٦١.

(٢) انظر المصدر نفسه جـ٢ ص٩٢٠-٩٢٢ وما حشد ابن قتيبة من تفسير مطول حول حرب كسرى مع بكر تأييداً منه في توضيح أبيات عديدة للأعشى تبيّن انخراطه بالعصبية بشكل تعبّر عنه هذه الأشعار ويستمر بعدها ابن قتيبة في ذكر كل ما يتصل بهذه العصبية ومدح من يقاتلون عن سمعة القبيلة سواء كان من خارج قبيلته تكسباً أم كان من داخلها فخراً وهيبةً.

(٣)انظر المصدر نفسه جـ٢ ص٩٢٤ وجـ١ ص٩٩.

(٤)انظر المصدر نفسه جـ٢ ص٩٢٣-٩٢٥ انظر ص٨٩٤. انظر الديوان ص ١٤٧

(٥) المصدر نفسه ج ٢ ص٩٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نَعَمْ يكونُ حِجازُهُ بِرِماحِنا وإذا يُراعُ فإنَّه لَن يُطْرَدَا[١]

ونادراً ما كان يعرّج ابن قتيبة على أشعار الوصف لأسلحة المعركة المادية، بل كان جلُّ ما عرض له فخراً ومدحاً وهجاءً[٢] بصورة المبالغة التي تتيح لخيال الأعشى صياغة الصور وسبكَ معانيها بما يتناسب مع الموقف الذي يعيشه الأعشى؛ حتى اختار ابن قتيبة ما يقارب ثُلث الناحية المعلوية النفسية في الحرب من شعر الجاهليين من مختاراته في كتابيه للأعشى وحده.

ومن تميّزه في فن المدح اختار ابن قتيبة ما يقارب نصف الشعر الجاهلي في باب المدح من كتابه المعاني الكبير من شعر الأعشى[٣]، ولعل في تصويره شدّة المعاناة مع مجيء الممدوح الذي يحوّل جحيمها إلى فردوس غنّاء مع إسباغ الأوصاف المثالية التي يحاول وصولها كل الشرفاء يقول في مدح أحدهم :

فتىً لَوْ يُنادي الشَّمسَ أَلْقَتْ قِناعَها أو القمرَ السَّاري لأَلْقَى المقالِدا

ينادي : يجالس من النّادي، ألقت قناعها : أي ذهب نورها وحسنها بحسنه، ولألقى القمر المقاليد إليه أي أقرّ له بالحسنى، ويقال المقاليد : المفاتيح واحدها إقليد"[٤].

وكان موضوع هذا الاختيار ينصبُّ في مجرى المدح بالكرم والشجاعة في الحرب مما يضمن للممدوح زيادة بالشرف والمجد مع تصوير جديد لم تلوكه ألسنة الشعراء بل تجد إبداعاً في دقّة التصوّر لحال الممدوح، وهذا ما كان يعطي شعر الأعشى أولوية في الذكر عند ابن قتيبة في اختياراته، من مثل قول الأعشى مادحاً :

" وفي كُلِّ عامٍ أنتَ جاشمُ وَقْعةٍ تشدُّ لأقصاها عَزيمَ عَزائِكا
مُوَرِّثَةً مالاً وفي الأصلِ رفعةً لما ضاعَ فيها من قُروءِ نسائِكا

---

(١) المعاني الكبير ج٢ ص٨٨٥ بينما عندما مدح رجلا بمحافظته على القوة الاقتصادية عنده قال :

وثوّب إذا ما الحرب آوث سروبهم وفاتهم مأوى من الأرض سملق

سروب : جمع سرب ، كانوا إذا أحسوا الغارة ضموا الإبل ولم يسرحوها بعيدا وفاتهم مأولها الذي كانت ترعى فيه المصدر نفسه ج١ ص٩٦٨ .

(٢) يسوق شوقي ضيف في كتابه العصر الجاهلي ص٣٥٣ قولاً في تميّز شعر الأعشى " أنّه إذا مدح رفع و إذا هجا وضع ".

(٣)انظر المعاني الكبير جـ١ ص٥٤٥-٥٤٧ وص٥٤٩.

(٤) المصدر نفسه ج١ ص ٥٤٥ــ ٥٤٩ انظر الديوان ص ٦٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أي لما ضاع فيها من طُهْر نِسائك فلم تَغْشَهُنّ لِشُغْلِك بالغزو، فأبدلتَ من ذلك هذا المال وهذه الرفعة "[١].

ويستغل ابن قتيبة شكل البيئة الحربية التي ترفل في شعر الأعشى بصورها المختلفة وبفنون الموضوعات التي يناقشها حتى سبيل التفكير في خطة جهّزها الممدوح أو صورة عالية في الدّراية بالفنون الحربية مع التزام المبالغة في حماية الجار والنساء[٢]. ويحاول ابن قتيبة بعدها توزيع هذه الأشعار على الموضوعات المختلفة الأخرى من نساء وحيوان وعلدات جاهلية ولكنها لم تكن بصورة الكثرة التي يمكن اعتبارها ظاهرة مميّزة في اختيارات ابن قتيبة لشعر الأعشى بل إنها لم تتعد مجموع عشرة أبيات لكل موضوع منها، وكانت هذه الموضوعات تأتي وسيلة لإتمام الحديث عن موضوع مدح أو صورة حرب أو هجاء، كما قال الأعشى في صورة للحرب التي لا بدّ منها :

" وما خلْتُ أبقى بيننا من هوادةٍ عِراضُ المَذاكي المُسْنِفات القلائصا

المذاكي: المِسان، أي قد قُرِنت (الخيل) بالإبل في تَعارضها. والمُسنِفات إن كان من صفة الخيل فهو بكسر النون وهي المتقدّمات، كأنه قال عراض المسنِفات القلاص وإن كان من صفة الإبل فهو بفتح النون وهي المشدودات بالسّنف كأنه قال عراض المذاكي القلاص المُسنَفات"[٣]

وبهذا يبدو عرض ابن قتيبة لكثير من الشعر في كتاب المعاني الكبير للأعشى أو لغيره من الشعراء ينحصر في قالب الموضوع العام للباب والتفسير المعجمي الصحيح أو المحتمل لما ورد من أبيات المعاني مع اختصار سريع –عند الحاجة– لما قصده الشاعر في البيت الذي هو بصدد كشف اللّبس عن المعنى أو الصورة التي يريدها ابن قتيبة أن تخدم توضيحه لهذا البيت أو لذلك الباب من الموضوعات.

---

(١)المعاني الكبير جـ١ ص٨٩١ ومن شدّة إعجاب ابن قتيبة بهذا البيت قال بعده : " ومثله للنابغة :

شعب العلافيات بين فروجهم والمحصنات عوازب الأطهار "انظر الديوان ص٩١

(٢)المصدر نفسه جـ١ ص٥٣١ ص٥٤٩، جـ٢ ص١١٢١ – ١١٢٢.

(٣) المصدر نفسه جـ١ ص٩٩.انظر ما قاله هاشم ياغي وآخرون ــ تاريخ الأدب العربي ص٤٧ حول أسلوب الأعشى : " وهو أنه يكثر من التعبير المباشر ،ويقلّ لديه غير المباشر [والمعروف] أن التعبير غير المباشر أجمل كثيراً في دنيا الفنّ الشعري وغير الشعري [مثل] لامية الشنفرى ".انظر الديوان ص١٥١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عرض ابن قتيبة لشعر النابغة الذبياني

ازدحمت ترجمة النابغة الذبياني بأخبار كثيرة تحمل رسماً من التفوّق لشاعر أسبغ عليه القدماء –في ترجمته عند ابن قتيبة– آيات المدح والثناء والتفضيل على غيره من الشعراء، فابن قتيبة من مستهل ترجمته يحشد الآراء التي تفضّله يقول : "وأهل الحجاز يفضّلون النابغة وزهيراً "[١]. و " يقال : كان النابغة أحسنهم ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتاً، كان شعره كلاماً ليس فيه تكلّف، ونبغ بالشعر بعدما احتنك، وهلك قبل أن يُهتَر"[٢].

ومع ما تحمله هذا العبارات من سعة معانٍ وتفاوت أفهام إلا أن ابن قتيبة لا يعلّق عليها، بل يزيد من وتيرة هذا المدح الوافر عندما يحشد ثلاثة أخبار جاءت على شكل حوار بين متذوقي الشعر تارة وبين النابغة مع حسان بن ثابت تارة أخرى، ومن هذه الأخبار ما هو قصير كقول " شُعيب بن صخر : سمعت عيسى بن عمر يُنْشِد عامر بن عبد الملك المِسْمَعيّ شعر النابغة، فقلت : يا أبا عبد الله، هذا والله الشعر، لا قول الأعشى :

لَسْنا نُقاتِلُ بالعِصيّ ولا نُرامي بِالحِجارهْ "[٣]

ومن هذه الأخبار ما هو طويل يحمل في ثناياه أخباراً في تفضيل شعر النابغة على غيره من الشّعراء كما حدث في الحوار الذي جرى وكان أحد أطرافه الأخطل الذي فضّل نفسه على غيره من الشعراء ولكن عندما ذكَره أحدهم بشعر يمدح فيه النابغة الغساسنة، صدع الأخطل للأمر فكان أن قال : "صدق ... النابغةُ أشعر مني، فقال لي عبد الملك : ما تقول في النابغة؟ قلت : قد فضّله عمر بن الخطاب على الشّعراء غير مرّة، (فقد) خرج وببابه وفد غطفان –فقال أي شعرائكم الذي يقول؟ ... ويقول .... ويقول ... قالوا : النابغة ، قال : هذا أشعر شعرائكم"[٤].

وابن قتيبة بعد أن يورد هذا الخبر يبقى ساكناً دون تحريك نقده في هذه الأخبار التي تُظهر الأبيات المنحولة فيها روحاً إسلامية حول الحفاظ على العهد كما كان يفعل سيدنا نوح –عليه الصلاة والسلام– في حين أنه رفض في موضع سابق أبياتاً للأعشى وقال فيها : إنها

---

(١)الشعر والشعراء جـ١ ص٩٢.

(٢) المصدر نفسه جـ١ ص٩٢.

(٣) المصدر نفسه جـ١ ص٩٢ انظر الهامش في التعريف بمن ذكروا في الخبر.

(٤) الشعر والشعراء جـ١ ص٩٣-٩٤ يرفض شوقي‌ضيف هذه الرواية لما تحمل من أبيات تحوي معاني إسلامية معتداً بما رواه ابن سلام في طبقاته ص٤٩-٥٠. والجاحظ في الحيوان ج٢ ص٢٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ظاهرة الانتحال، فكيف يخفى عليه زيف أبيات يشوبها أقوال فيها من المبالغة الكثير حتى جعلت عمر بن الخطاب يطيل الوقوف في استجواب قوم النابغة ليُصدر الحكم في النهاية واقفاً، فهل يَعرِض ابن قتيبة بعض الشعراء على سبيل المثال دون التعميم؟ أم تراه ينتقي من الأخبار ما اتفق، فينقلها دون تمحيص، وكأن قصده من ذلك تزويد طلاب العلم بما شاع عن الشاعر من أخبار وعليهم بعدها أن يكبّوا عليها بالدرس والتمحيص ليميزوا الخبيث المدسوس من الطيب الصحيح النسبة إلى الشاعر.

ويلطبق عدم تحرّز ابن قتيبة في مدى صدق الأخبار التي يرويها عن النابغة في أن كثيراً من الأخبار لا يعزوها لراوٍ بعينه، وهذه الأخبار تتضمن شعراً وأحياناً قليلة يذكر الراوي كما فعل عندما ذكر قصة ابن الكلبي –المعروف بنحلة الكثير من القصص[١]– حول غلبة مكانة النابغة على مكانة حسان بن ثابت عند النعمان بن المنذر رغم ما كان يُفيضه حسان بن ثابت من مدائح عليه فلما حضر النابغة توجّه الاهتمام في المجلس للأخير[٢]، ويبدو أن ابن الكلبي يريد أن يربط هذه القصة مع الخبر المشهور حول تحكيم النابغة الذبياني وموقفه من جودة شعر حسان بن ثابت أمام جودة شعر الأعشى والخنساء وتفضيلهما عليه، وقد جاء ابن قتيبة على ذكر خبر هذه القصة في ترجمتي النابغة والخنساء مع تفصيل مميّز في ترجمة الخنساء فيه زيادات وتعليقات دون ذكر راوي الخبر بل يبدؤه ابن قتيبة كما يلي : "وكان النابغة تُضرب له قبةٌ حمراء من أدَم بسوق عُكاظ، وتأتيه الشعراءُ فتعرض عليه أشعارها، فأنشده الأعشى أبو بصير، ثم جاءت الخنساء السُلَمية فأنشدته، فقال لها النابغة : والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت : إنك أشعرُ الجنّ والإنس، فقال حسان والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ومن جدّك، فقبض النابغة على يده ، ثم قال : يا ابن أخي، إنك لا تُحسن أن تقول مثل قولي :

فإنّكَ كالليلِ الذي هو مُدْرِكي وإن خلتُ أنّ المُنْتَأى عنكَ واسعُ "[٣]

---

[١] مر الحديث عن القصص المنتحلة على امرئ القيس على لسان ابن الكلبي للحكم على روايته.

[٢] انظر تعليق المحقّق للشعر و الشعراء حول الأبيات التي نسبت لغير شاعر التي يقال فيها :

أنام أم يسمع ربُّ القبّة يا أوهب النّاس لعنسٍ صلبه

ضـرابةٍ بالمشفر الأنبّة ذات نجاء في يديها جـذبة

وكتاب الشعر والشعراء يحوي روايتين لهذه القصة انظر جـ١ ص٩٢ و ص٩٤.

[٣] الشعر والشعراء جـ١ ص٢٦١ وانظر الإشارات إلى هذا التحكيم وإيجاز القصة جـ١ ص١٠١. انظر الديوان ص١٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد إشارة ابن قتيبة لهذه المكانة النفيسة للنابغة يؤكّد هذا الحكم بشكل أوضح حيث يروي حكماً لأبي عبيدة يقول فيه : "يقول مَن فضّل النابغة على جميع الشعراء : هو أوضحهم كلاماً، وأقلُّهم سَقَطاً وحَشْواً، وأجودُهم مقاطعَ، وأحسنُهم مطالع، ولشعرِه ديباجة إن شئت قلت : صخرةٌ لو رُديت بها الجبالُ لأزالتها".

ويختار بعد ذلك ابن قتيبة جزءاً حسّاساً لقصّ طبيعة الحياة السياسية التي تتقّل فيها النابغة الذبياني بين قصور الغساسنة والمناذرة بسفارته، فأضفت الطابع الحضري على ألفاظه وصوره رغم البيئة الحربية الصعبة التي عصفت بقبيلته، فحاول جاهداً تسليمهم الشرور والإبقاء على وحدتهم، وبإشارات غير واضحة من ابن قتيبة حول هذه المرحلة الحساسة من حياة النابغة يأتي إلى سبب ترك النابغة للمناذرة وذهابه إلى الغساسنة، فيذكر ابن قتيبة أخباراً حول سبب هذا السفر المفاجئ مع تضمينها بأشعار منحولة على النابغة ، ولإظهار الحقيقة كما يراها ابن قتيبة يكتفي بالتشكيك دون القطع بسبب هذا السفر المفاجئ فيذكر بين كل خبر وآخر عبارة "يقال" و "قد اختلفوا في السبب الذي بلغه عنه" و "فقال قوم: إنه هجاه" ويستمر بعدها ابن قتيبة في هذه الروايات مع ما فيها من أشعار ملحولة سقيمة دون صقل لها -وكأن هذه الأحكام التي ساقها ابن قتيبة لا قيمة لها فلم تفد معرفته بطبيعة شعر النابغة وموضوعاته أن السبب الأساسي لفراق النابغة الذبياني هو من طبيعة مهمّته السياسية في السفارة للغساسنة لمساعدة مَن أسر من قومه الذين نالت منهم الحروب ولا بدّ له أن يقوم على اجتماع لُحمة قبيلته بقدّر ما يستطيع، فهو لم يفرّ من المناذرة لوشاية أو لخوف ، ولو كان الخوف قد بلغ هذا الحدّ لما وصل إلى أعداء المناذرة بعد خروجه فوراً من قصورهم، بل إنه سيختار من يُشعره بالأمن والسلام بعد أن جرّب حياة القصور والقرب من الملوك ووجد فيها ما وجد.

وأحياناً يأتي من ابن قتيبة في ثنايا أخباره عن النابغة ما يدل أن ذنبه ليس ذنباً شخصياً، بل هو تراكم في العلاقات المشحونة بين الغساسنة والمناذرةوهو ما يوحي به في سياق الخبر الذي يقول : " فأقام النابغة في (الغساسنة) فامتدحهم، فغَمّ ذلك النّعمان ، وبلغه أن الذي قُذف به عنده باطل، فبعث إليه : إنّك صرت إلى قوم قتلوا جدّي فأقمت فيهم تمدحهم، ولو كنتَ صرت إلى قومك فقد كان لك فيهم ممتنع وحصن"[1] وفي ثنايا هذا القول يغربل ابن قتيبة هذه الأشعار المنحولة على النابغة ويورد بعدها أبياتاً من معلقته التي تحوي اعتذاريات النابغة

---

(١) الشعر والشعراء جـ١ ص١٠٠-١٠١. انظر ص ٧٠ من هذه الدراسة حيث تدلّ على أن الهدف الأساسي لسفارة النابغة إلى الغساسنة ومدحهم هو لإطلاق أسرى قبيلته.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للنعمان وتبيّن معها فصاحته التي تلقى من النعمان الترحيب كلّه، وكان من هذه الأبيات التـــي تصف اللقاء الأوّل بينهما ــ بعد غيابه ــ :

نُبِّئْتُ أنّ أبـــا قابوس أوْعَدني ... ولا قرارَ على زَأرٍ مِن الأسَـدِ
مهلاً فـــداءٌ لك الأقوام كُلُّهم ... ومـــا أُثمِّرُ من مال ومن ولـدِ
فلا لعمـــر الذي مَسَّحتُ كعبتَه ... وما أريق على الأنصاب من جسدِ
ما إن بدأتُ بشيء أنت تكرَهُه ... إذن فلا رَفَعت سوطي إليّ يدي[1]

وما يفيد في سوق هذه الأخبار عن النابغة هو تبيّن ملامح البيئة السياسية والاقتصاديـة والنفسية والحربية التي ساهمت في بناء فكرة عن تجربة النابغة الذبياني، وبيان صداها فـــي شعره الذي يميّز بمسارب لم يحد عنها،وجعلت ميزان الجودة عند ابن قتيبة يشير إلـــى سـبق شعر النابغة وإبداعه في معانٍ لم تُوْرَدْ من قبل بهذا الذوق الحضري الحذِر في انتقاء الألفـــاظ وتصوير أدقّ المعاني ، ليؤثّر حقّ التأثير بالطبقة الاجتماعية التي يحـــاول اســـتجداء قناعتـــها بالكفّ عن ملاحقة قبيلته بالحكمة والموعظة الحسنة المشوبة بالمدح والاعتذار.

ويبدو أن ابن قتيبة يُؤْثِرُ الشعر الذي تذهب منه الحكمة مذهب الأمثـــال مـــع عنايتـــه بجودة التشبيه الذي فيها، ويجعل له مرتبة الصدارة في اختياراته لشعر النابغة الذي تبعه فيـــه الشعراء "ومما يتمثّل به من شعره ... قوله :

فلو كفّي اليمينُ بَغَتْكَ خَوْنَاً ... لأفردْتُ اليمينَ مِن الشِّمالِ

أخذه المثقب العبدي فقال :

ولو أنّي تخالِفُني شِمالي ... بنصرٍ لم تُصـــاحِبْها يَميني

---

[1] الشعر والشعراء جـــ١ ص١٠١ ويلاحظ خلو المعلقة من أي إشارة عن الواشين بل نراها تبرز عمق رغبته في الانصياع لمصالح قبيلته انظر ما ساقه شوقي ضيف –العصر الجاهلي ص٢٧١-٢٧٤ و ص٢٧٦ انظر ما أوجزه هاشم ياغي وآخرون ــ تاريخ الأدب العربي ص٣٦. انظر الديوان ص ٨٥ ــ ٨٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقول (النابغة) :

فحمّلني ذنب امرئ وتركتَهُ كذي العُرّ يُكوى غيرُه وهو راتع

...

وقوله :

واستبقِ وُدّكَ للصَّديق ولا تَكُنْ قَتَباً يَعَضُّ بـغاربٍ مِلحاحـا "[١]

ولا يكتفي ابن قتيبة بما عَرَضَه من استحسان لهذه الأمثال بل تراه يحشد المزيد من الأمثال الشعرية وكأنها رائقة له ففي تأكيده على اكتشاف ظاهرة كثرة الأمثال عند النابغة في سبيل عرض شعره ،يزوّد ابن قتيبة طلاب العلم بأشكال ذكر الأمثال في الشعر، فمنها ما يذكر فيه بيت الشعر ــ وحده ــ ويصبح مثلاً بنفسه كقوله : " ومما يُتمثل به أيضاً من شعره :

ومَنْ عَصَاكَ فَعَاقِبْهُ مُعاقبةً تَنْهَى الظَّلومَ ولا تَقْعُدْ على ضَمَدِ "[٢]

ومنها ما يذكر المثل عند العرب ثم يأتي بما يوافقه من شعر النابغة كقوله : "وفي أمثالهم : "أصدق من قطاة" قال النابغة :

تَدْعو القَطَا و بِها تُدعَى إذا نُسِبَتْ يا حُسْنَها حينَ تَدْعُوها فتَنْتَسِبُ "[٣]

ومنها ما يسوق المثل في قصته المُفصّلة ثم تأتي بعدها أبيات النابغة لتصوّر قصّة هذا المثل شعراً من مِثْل قصّة الحيّة مع الأخوين اللذين قتلت أحدهما الحية، فأراد الآخر أن يثأر لأخيه فتعهّدت الحيّة له بدينار كل يوم فأبى قتلها حتى أصبح ثرياً، ثم تذكر أخاه يوماً فذهب ومعه فأس حتى خالسها بضربة على رأسها فأثّر فيه ولم يُمْعِن، فقالت الحية : " إنه ما دام هذا القبر بفنائي وهذه الضربةُ برأسي فلست آمَنَك على نفسي، فقال النابغة في ذلك :

تَذَكَّرَ أنّى يَجْعلُ اللّهُ فُرْصَةً فيُصْبِحَ ذا مال ويقتُلَ وَاتِرَه

---

(١) الشعر والشعراء جـ١ ص٩٥ العرّ : قروح تظهر في الإبل، فتكوى الصحاح لكي لا تنالها العدوى، والعرّ هو الجرب إلا أن الإبل لا تكوى منه. انظر بيتي الكميت وابن ميادة اللذين أخذا المعاني السابقة من النابغة.

(٢) المصدر نفسه جـ١ ص٩٧. انظر الديوان ص٨٢

(٣) المصدر نفسه جـ١ ص٩٧ انظر الميداني ــ مجمع الأمثال جـ١ ص٢٧٨ انظر الجاحظ ــ الحيوان جـ٥ ص٥٧٣ و ص٥٧٨. انظر الديوان ص ٦٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلمّا وَقَاها الله ضَربــةَ فأسِــهِ ... وللبرّ عَيْــنٌ لا تُغَمّضُ نَاظِــرَهْ
فقالت : معاذَ الله أعطيك، إنّني ... رأيتُكَ غَــدّاراً يمينُك فاجِــرَهْ
أبى لــيَ قبرٌ لا يــزالُ مُقابلي ... وضربةُ فأسٍ فوقَ رأسيَ فَاقِرَهْ "[١]

ويبدو أن هذا الحشد من أنواع المثل لم يخلُ من نحل على النابغة.فالمعاني الإســلامية في المثل الأخير ظاهرة بيّنة من مثل "للبرّ عين لا تغمض نــاظره" و "معــاذ الله" و "يمينــك فاجره" وكأن ابن قتيبة كان همّه الأكبر جمع ما يتصل بظاهرة الأمثــال دون عنايــة بفحــوى المثل الذي ينطبق في موضوعه العام مع اتجاهات النابغة، مع أنّه ذكر فيما سبق قسمه بالكعبــة وما أريق من دم القرابين على الأنصاب، فكيف انتقلت هذه الروح الإســلامية وطغــت علــى الصبغة الجاهلية مع أن النابغة قال الأبيات التي تقسم بالكعبة وبالقرابين على الأنصــاب فــي المراحل الأخيرة من حياته في اعتذاراته للنعمان أي بشكل أخصّ بعــد رجوعــه مــن عنــد الغساسنة الذين يمكن أن يكون قد تأثر بهم وببيئة دينهم.

ولا ينكر أحد وجود ألفاظ نصرانيةفي شعر النابغة وقد اختار منها ابن قتيبة ما يُتَمَثَّــلُ به في العِفّة، "وهو أحسن ما قيل فيها :

رِقاقُ النِّعال طيّبٌ حُجُزاتُهم ... يُحيّونَ بالرَّيحانِ يومَ السَّباسبِ"[٢]

وهذا شاهد على تأثّر جديد في شكل المدح ومعانيه الدقيقة المبتكرة بالكناية عن العيش الــهانئ الذي يعيشه الغساسنة بعبارة "رِقاق النّعال" ويلازمه تصوير باستغلال رمز الريحان وما يبثّــه هذا النبات من حيوية في البيئة التي تقرب منه، وهذه كلها إشارات حول بيئة النابغة الخاصــة التي كوّن بها صورة ومعانيه ولكن بشكل غير صريح.

ويشير ابن قتيبة إلى علوّ كعب النابغة في فنّي المدح والاعتذار وكأنه يستبطن رغبة فــي استجلاء النظر بسرّ هذا التميُّز عبر طريقين: أولاهما بيان الأسلوب الذي استنّه النابغة لنفســه حتى يعبّر عن صورة الاعتذار، وثانيهما شرح الأبيات المتعلّقة بالاعتذار دون غيرها بشــكل مميّز وموسّع يقول ابن قتيبة : " قالوا : وقايس في شعره فأحسن، قــال للنعمان حين فارقه

---

(١)الشعر والشعراء جــ١ ص٩٦ انظر المفضّل الضبي –أمثال الضبي ص٨٤. انظر الديوان ص١٣٣، ١٣٥
(٢) المصدر نفسه جــ١ ص٩٧ طيب حجراتهم : كناية عن العفّة ، السباسب : عيد الشعانين عند النّصارى، وقد تأثر عَدي بن زيد العبادي بهذا المعنى وأخذه منه .انظر المصدر نفسه ص٩٧. انظر الديوان ص٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وانظر في قول ابن قتيبة : " ويُستجاد له قوله في صفة المرأة :

نَظَرَتْ إليكَ بحاجةٍ لمْ تَقْضِها نَظَرَ السّقيمِ في وُجوهِ العُوّدِ

... ويُستجاد له قوله :

تكلّفني أن يفعلَ الدّهرُ هَمَّها وهلْ وَجَدَتْ قَبْلي على الدّهرِ قادرا[١]"

وهذا التنويع المميّز في استخدام أساليب التّمني والتعجب والنفي والاستفهام في التعبير عن صدق اللوعة في المشاعر دون تطرّق لوصف جسدي في الغزل بالمرأة يدعم نظرة ابن قتيبة في بداية مقدمته حول عدم قدرة الشاعر الإجادة في جميع فنون الشعر من مدح وهجاء وغزل ورثاء... الخ ، أمّا عندما جاء ابن قتيبة في حديثه عن العيوب ساق حكماً عن النابغة فيه إظهار لضعفه في الغزل الصريح يقول : "وأفرط في وصف العنق بالطول ، فقال يذكر امرأة:

إذا ارتَعَتْ خافَ الجبانُ رُعَاتُها ومَن يَتَعَلّقْ حيثُ عُلّقَ يَفْرَقِ

والرُّعاث : القرط ، وقال غيره فأحسن ..."[٢]

وتظهر المبالغة في شعر النابغة أكثر الطرق التي وجد العلماء قديماً طريقاً لبثّ العيوب في تشكيل معانيه وصوره، وابن قتيبة يذكر الأبيات ثم يمرُّ على تعليل العيب بشكل موجز في غير موضع من مثل الخبر الذي يقول فيه : "وأخذوا عليه قوله في وصف السيوف:

يَطيرُ فُضاضاً حَولها كلُّ قَونَسٍ ويَتْبَعُها مِنهم فَراشُ الحَواجِبِ
تَقُدُّ السّلوقيَّ المُضاعفَ نسْجُهُ ويُوقِدنَ بالصُّفّاحِ نارَ الحُباحبِ

---

(١)الشعر والشعراء جـ١ ص١٠٥. انظر الديوان ص ٩٧ ص ١١٥

(٢) المصدر نفسه جـ١ ص١٠٤. انظر الديوان ص ١٨٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذكر أنها تقُدّ الدروع التي ضوعف نسجها والفارسَ والفرس، حتى تبلغ الأرض فتتقدحَ النارُ بها من الحجارة"[١].

ولعل المُتتبّع للأبيات التي أخذها عليه العلماء قديماً في أربعة مواضع ضمن ترجمته عند ابن قتيبة، يُلاحظ مدى التشابك الذي يقيمه النابغة في رسم المعنى المبالغ فيه بصورة جديدة يجيد سبكها في أغلب الأحيان، ولكن إذا صبّ اهتمامه على المعنى دون الصورة أو العكس فسيحصل الخلل الذي يعلّق عليه ابن قتيبة بقوله : "وقد سبق في صفة الثور إلى معنى لم يُحسن فيه، وأحْسَن فيه غيره ــ مع ذكر المثال ــ"[٢].

ويستتمّ ابن قتيبة حديثه عن عيوب النابغة التي تحدث في الشكل الموسيقي المتناسق لحرف الروي الموحّد في القصيدة كلّها ــ يسميه ابن قتيبة تارة الإكفاء وتارة الإقواء مع شيوع مميّز للأخير ــ يقول ابن قتيبة : "ومما أكفأ فيه قوله في قصيدة مجرورة، أولها :

قالت بنو عامر : خالوا بني أسَدٍ يا بؤسَ للجهلِ ضَرّاراً لأقوامِ

وقال فيها :

تَبْدو كَواكِبُهُ والشّمْسُ طالِعَةٌ لا النورُ نورٌ ولا الإظْلامُ إظْلامُ "[٣]

وكان ابن قتيبة قد ساق خبراً في بداية ترجمته للنابغة يقول فيه : " وكان يُقوي في شعره، فعيب ذلك عليه وأسمعوه في غناء :

أمِن آلِ مَيّةَ رائحٌ أو مُغْتَدِ عَجْلانَ ذا زادٍ وغيرَ مُزَوَّدِ
زعمَ البَوارِحُ أنّ رِحْلَتَنا غداً وبذلكَ خبّرَنا الغرابُ الأسودُ

---

(١) الشعر والشعراء جـ١ ص١٠٣ وانظر في الصفحة ذاتها أبياتاً بائية تحمل الدرجة ذاتها من المبالغة الحادة وهذه الدرب جعلته يخطئ لاهتمامه بصورة المبالغة عبر بيتين في وصف الثور جـ١ ص١٠٢ و ص١٠٣ . انظر الديوان ص ٤٧ ــ ٤٨ انظر الجاحظ ــ الحيوان ج١ ص٣١٢

(٢) المصدر نفسه جـ١ ص١٠٣.

(٣) المصدر نفسه جـ١ ص١٠٥-١٠٦. انظر الديوان ص ٢٢٨ ــ ٢٢٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ففطن، فلم يعد"[١] وحتى إن كان الخبر الأخير من ضمن قصيدة منسوبة إلى النابغة ــ في المتجرّدة زوجة النعمان ــ فالأجدر عدم إطلاق الحكم على جميع شعر النابغة بأنه يخلو تماماً من الإقواء، لأنّ التعميم يسحب القول على جميع الشعر وبدليل القول في الخبر الأوّل فمن باب أولى الترّيث في إصدار الأحكام[٢].

ويكتفي ابن قتيبة بالتعريف باسمه كاملاً مع إشارة إلى كنيته "أبي أُمامة" ويقال إنّها "أبو ثُمامة " مع تفسير موجز بأنه "سمي النابغة بقوله: [فقد نبغت لنا منهم شؤون]؛ وكان شريفاً فغضّ منه الشعر"[٣] دون أيّة إشارات أخرى لبيئة النابغة في قبيلته ذبيان، أو حتى مكانة والده وأمه أو حتى أدنى أخبار عنهما كما فعل في والديّ امرئ القيس أو والد الأعشى من أخبار مطوّلة أو موجزة.

ولكن النابغة حاز على اهتمام مميّز عند ابن قتيبة في كتابيه، فهو يعدّ بحقّ الشاعر الأكثر تكراراً لأبيات مشهورة حيث بلغت ثلاثة وخمسين موضعاً من مجموع مئة وستة وثمانين بيتاً من الشعر في ثنايا كتابيه، وقد جاءت البيئة الحربية على ما يقارب النصف من مختارات ابن قتيبة لشعر النابغة، فكان المدح والهجاء والموقف الصادق من العصبية القبلية والمحافظة على شرفها يأتي في المقام الأول ضمن البيئة الحربية التي ملأت على النابغة حياته حتى أنها تسرّبت إلى حديثه عن المرأة في غير موضع، يقول النابغة "وذكر نساء سُبين :

شُمُسٌ موانعُ كلِّ ليلةِ حُرَّةٍ يُخْلِفْنَ ظنَّ الفاحشِ المِغيارِ

شُمُس : عفيفات فيهنّ نفار وأزواجهن غيّب وإذا غُلبت المرأة ليلة هِدائها قيل باتت بليلة شيباء، وإذا غَلَبت قيل باتت بليلة حُرَّةٍ ... و(من) أساء الظنّ (بهنّ) أخلفن ظنّه لعفتهنّ"[٤]

---

(١)الشعر والشعراء جـ١ ص٩٣. انظر الديوان ص ٩٣

(٢) انظر شوقي ضيف ــ العصر الجاهلي ص٢٩٧-٢٩٨ كيف عالج قضية الإقواء سطحياً عند النابغة مع رفض سريع بتشكيك في الرواية دون سبب مقنع من داخل النّص.

(٣) الشعر والشعراء جـ١ ص٩٨.

(٤) المعاني الكبير جـ١ ص٥٠٨ انظر أبيات النابغة حول المرأة ص٥٠٩-٥١٠ انظر الأبيات المتعلقة في الحرب جـ١ ص١٢ وص٤٢ وص٣٦٦ جـ٢ ص٩١٤-٩٢٠ وص١٠١٥ وص١٠٣٢-١٠٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن شدّة تعلّق النابغة بالحرب لم يُذكَر من الأبيات المتعلّقة بالمرأة في اختيارات ابـــن قتيبـــة سوى بيتين[١] من الأبيات العشرين له في ذلك الموضوع.

ويُظهر ابن قتيبة اعتناءً خاصاً بصور النابغة في عرضه لأبيات المعـــاني مـــع قلـــة عنايته بتوضيح المفردات عنده ، ففي اللحظة التي يبدأ فيها النابغة بتصوير معناه يبـــادر ابـــن قتيبة لتوضيح الصورة وكشف مدى العناية التي خصّها النابغة لأبياته : "قال النابغـــة يصـــف جيشاً :

وما حاوَلتُما بجِماعِ جَيْشٍ يَصونُ الوَرْدُ فيهِ والكُمَيتُ

يصون : يتوجّى، وخصّ الورد والكُميت؛ لأنّهما فيما يقال أصلب الدواب حوافر"[٢] وانظر فـــي قوله في النسور تتبع عسكراً :

" يُصانِعْنَهم حتى يُغِرنَ مُغارَهم من الضارياتِ بالدّماءِ الدّوارِبِ

يقول: هذه النّسور تسير معهم فلا تؤذي دابّة ولا تقع على دبره مصانعتها لهم، ثم قـــال مـــن الضاريات بالدّماء، والدّوارب المعتادة والدّربة الضراوة والنّسور تكون مـــع الجيـــش تنتظـــر القتلى لتقع عليهم فإذا لم تَحُم النّسور على الجيش ظنّوا أنه لا يكون قتال"[٣]

ولعل في المبالغة –التي سبق الحديث– باعثاً وراء انشغال ابن قتيبة بتوضيح الصّـــورة عند النابغة بمعناها الإجمالي دون تفصيل دقيق للمفردات الوعرة التي تبدو قليلة فـــي الوقـــت نفسه في شعر النابغة عند مدحه المناذرة والغساسنة بقوّتهم الحربية وبكرمهم، فالألفاظ دقيقـــة المعاني واضحة الدلالات؛ كي تسّهل التأثير على السامع بألوان الأساليب الإنشائية التي ســـبق الحديث عنها لتوصيل ذلك المدح " قال النابغة :

---

[١] المعاني الكبير جـــ٢ ص٩١٦ وص١٠٤٩ وقد جاء ابن قتيبة على شعر للنابغة يقال إنه نحل عليه وهو في زرقاء اليمامة انظر المصدر نفسه جـــ١ ص٢٩٩ انظر شوقي ضيف –العصر الجاهلي ص٢٨٠ وما ساقه من أقوال للجاحظ في الحيوان جـــ٢ ص٢٤٦ وابن سلام الجمحي – طبقات فحول الشعراء ص٤٩–٥٠ كلها تؤيد نحل الأبيات عليه. انظر الديوان ص ١٠٨ . جواد علي ــ المفصل ج٩ ص ٥٨٧ ــ ٥٩٢

[٢] المصدر نفسه جـــ٢ ص٩١٨. انظر الديوان ص٧١

[٣] المصدر نفسه جـــ٢ ص٩١٣. انظر الديوان ص ٤٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وغـــارةٍ ذاتِ أطـــفالٍ مُلَمْلَمَةٍ شَعواءَ تَعتَسِفُ الصَّحراءَ والأكَما
خيلٌ صيامٌ وخيلٌ غيرُ صائمةٍ تحتَ العَجاجِ وخيلٌ تَعلِكُ اللُّجُما "[١]

وعند توضيح ابن قتيبة للبيتين يوضّح مفهوم الكناية أكثر من بيانه لمعنى المفـــردات إذ يقـــول "أي تُزلق الخيل فيها أولادها ... [فهي] صيام قيام ليست في قتال وأخرى تعلك اللُّجما قد هُيِّئت للقتال "[٢]، فهذا الاستقصاء في المعنى لا تكفيه الإشارة لمعنى كلمة بل تجـــده يربـــط البيـــت بوحدته في المعنى ليكتمل معه رسم الصورة كقول النابغة " يصف نساءً سُبين :

يُخَطِّطْنَ بِالعيدانِ في كلِّ مَقْعَدٍ وَيَخْبَأْنَ رمّانَ الثُّدِيِّ النَّواهِدُ

يُخطِّطن بالعيدان في الأرض من الهمّ، والمهموم يُولَع بذلك وبِلَقْط الحصى ".[٣]

وأمّا فنّ الهجاء فلم يمضِ فيه النابغة بسهم كبير، بل جاء بمعانٍ تتعالى عن الإقذاع فـــي الهجاء والسخرية فاكتفت معانيه التي اختارها ابن قتيبة في الهجاء بالسّفه والجـــهل والكـــذب دون إغراق كقوله :

أتاكَ بقولٍ لَهْلَهِ النَّسْجِ كاذباً ولم يأتِكَ الحقُّ الذي هو ساطعُ[٤]

---

(١)المعاني الكبير جـــ٢ ص٩١٥. انظر الديوان ص٢٢٢ ــ ٢٢٣

(٢) المصدر نفسه جـــ٢ ص٩١٥. انظر الديوان ص ٩١

(٣) المصدر نفسه جـــ٢ ص٩١٦ هذه الظاهرة لم تبرز عند ابن قتيبة في توضيحه شعر امرئ القيس والأعشى إلا نادراً. انظر الجاحظ ــ الحيوان ج١ ص ٤٦

(٤) المصدر نفسه جـــ٢ ص٨٢٧ لهله : رقيق شفاف.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عرض ابن قتيبة لشعر زهير بن أبي سلمى

أكسب ابن قتيبة زهير بن أبي سلمى خصوصية لم يتمتّع بـها غـيره مـن الشـعراء الفحول في الجاهلية، وكان شكل ترجمته يقوم أساساً على ظاهرة التّكلُّف في قول الشعر وعلـى نتائجها الظاهرة على المقرّبين الذين ساروا على دربه وحاكَوه في سبيل إبداع الفن الشـعري، أو على المتذوّقين والعلماء والشّعراء الذين أنزلوه المراتب العليا مع الريادة في فنّ الشعر.

ويمهّد ابن قتيبة لهذه الظاهرة في شعر زهير بن أبي سلمى بإشـادة مـن المتذوّقيـن المشهورين لشعر العرب من مِثل عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ في غير موضع مـن ترجمة زهير يقول ابن قتيبة : " ويروى عن عمر بن الخطاب أنه قـال : أنشـدوني لأشـعر شعرائكم، قيل : من هو؟ قال : زهير، قيل : وبمَ صار كذلك؟ قال كان لا يُعاظل بيـن القـول ولا يتّبِع حوشيَ الكلام، ولا يمدحُ الرجلَ إلا بما هو فيه، وهو القائل :

إذا ابتَدَرَتْ قيسُ بنُ عَيْلانَ غايةً ... من المَجدِ مَنْ يَسبِقْ إليها يُسَوَّدِ
سـبَقْتَ إليـها كلَّ طَلْـقٍ مُبَرِّزٍ ... سَبوقٍ إلى الغاياتِ غيرِ مُـخلَّدِ
فلو كان حمدٌ يخلِّد النّاس لم تَمُتْ ... ولكنَّ حَمدَ المرءِ ليس بمخلِّدِ "[1]

وليس هذا الطّلب الوحيد لعمر بن الخطاب –رضي الله عنه– في شغفه سـماع شـعر زهير بن أبي سلمى، بل ترى ابن قتيبة يحشد قولاً آخر بطلب سماع فن المدح في هـرم بـن سنان المُرّيّ بشكل خاص ؛لأن زهيراً أبدع فيه معانيَ عميقةً وصوراً دقيقةً في مكارم الأخلاق العالية التي يعزّزها الإسلام، ومثل هذا الشعر يقوّم الألسنة ويهذّب النفوس، فما كان من عمـر ابن الخطاب إلا أن طلب إلى " بعض ولَدِ هَرِم : أنشدني بعضَ ما قال فيكم زهـير، فأنشـده، فقال : لقد كان يقول فيكم فيُحْسِن ، فقال : يا أمير المؤمنين، إنّا كنّا نُعطيهِ فَنُجزِل، فقال عمـر ــ رضي الله عنه ــ : ذهب ما أعطيتموه، وبقي ما أعطاكم "[2].

---

[1] الشعر والشعراء جـ١ ص٧٦-٧٧ وفي رواية ثانية ينقلها ابن قتيبة أن المخاطَب كان ابن عباس، فلما سمع رغبة عمر بن الخطاب –رضي الله عنهما– بسماع شعر زهير " فلم يزل ينشده إلى أن بَرَقَ الصبح " ص٨١. انظر الديوان ص٢٣ ــ ٢٤

[2] المصدر نفسه جـ١ ص٨٢. انظر الجاحظ ــ الحيوان ج ٣ ص ٢٢٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه الإشادة بمكانة شعر زهير المتميّز شكّلتْ إرهاصاً آخر لابن قتيبة في تخصيص سبب التميّز لشعره ليذكر بعد إشادة المتذوقين قافلةً من الشعراء الذين أعجبوا بشعره وساروا على هُداه أجيالاً متعاقبة، يقول ابن قتيبة : " قال عكرمة بن جرير : قلت لأبي: مَن أشعر النّاس ؟ قال : أجاهليةً أم إسلامية ؟ قلت : جاهلية، قال: زهير "[١]، وفي خبر آخر يقول ابن قتيبة : " قال عبد الملك [ابن مروان] لقوم من الشعراء : أيّ بيتٍ أمدح؟ فاتفقوا على بيت زهير :

تَرَاهُ إذا ما جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً كأنَّكَ تُعْطِيْهِ الذي أنْتَ سائِلُهْ "[٢]

وما أن يبدأ الحديث عن الشعراء الذين تتلْمَذوا على يد زهير بن أبي سلمى حتى تظهر بشائر التأثّر والتأثير من أعلام الشعر الجاهلي والمخضرم في بيئة زهير الخاصة، وعندما يعرض ابن قتيبة هذا التأثر يربطه لاحقاً بمدرسة التّكلُّف وإبداعِها المميّز في الفن الشّعري، ففي مستهلّ ترجمة ابن قتيبة لزهير يأتي بخبر : " إنه لم يتصل الشعر في ولد أحد من الفحول في الجاهلية ما اتصل في ولد زهير ... وكان زهير راوية أوس بن حجر"[٣] ثم يقول مفسّراً في موضع آخر مَن هم الشعراء في هذه العائلة الشعرية التي اتصلت فيها الفروع بالأصول " فهؤلاء خمسةُ شعراء في نسق : العوّام بن عقبة بن كعب بن زهير بن أبي سلمى ، وكان أبو سلمى أيضاً شاعراً "[٤].

ثم يلمح ابن قتيبة عن مميزات هذه المدرسة بقوله : " كان زهيرٌ أُستاذ الحُطَيئة، وسئل عنه الحطيئة فقال : ما رأيت مثلَه في تكفّيه على أكناف القوافي، وأخذه بأعِنّتها حيث شاء من اختلاف معانيها امتداحاً وذمّاً"[٥] وفي لفظ "الأستاذ" إشارة صريحة لهذه المدرسة التي

---

(١)الشعر والشعراء جـ١ ص٧٧ وانظر تفضيل الحطيئة له في ترجمته عند ابن قتيبة جـ١ ص٢٤٠.

(٢) المصدر نفسه جـ١ ص٧٧.

(٣) المصدر نفسه جـ١ ص٧٦ أوس بن حجر زوج أم زهير.

(٤) المصدر نفسه جـ١ ص٨١ ولم يذكر من هذه المدرسة خال زهير بشامة بن الغدير وحتى أنه لم يذكر ترجمته في كتابه، الشعر والشعراء.انظر في تأثر زهير بخاله بشامة في ابن سلام – طبقات فحول الشعراء ص٥٦٣ والأصفهاني – الأغاني جـ١ ص٣١٢.

(٥) المصدر نفسه جـ١ ص٨١ انظر تفصيل طريقة مدرسة زهير في ديوانه ص٢٥٦ وانظر شوقي ضيف – العصر الجاهلي ص٣٠٤ حيث يقول "فقد كان يلقنهم الشعر ويروونه عنه وما يزالون يتلقونه حتى تتطبع في أنفسهم طريقة نظم الشعر وصوغه وهو في أثناء ذلك يمتحن قدرتهم ... بنظم بيت على غرار بيت له ".

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعلّم بها زهير بن أبي سلمى كما تظهر إشارة ثانية من تكرار زهير القوافي –على اختلاف الألفاظ التي تصلح للمعنى والصورة – أمام الحطيئة ليزيد من معجمه ويقوّي من ملكته على تمييز الغثّ من السمين من المفردات التي يصرف فيها جهداً ووقتاً لتثمر عن إبداع يناسب طبيعة الفن الشعري الذي يبغيه مدحاً كان أم هجاءً. ويقرّ القول السابق بإبداع زهير فقدرته على التصرف في الألفاظ واختيار أعلاها فصاحة جعل منه القدوة الفضلى.

وبعد هذه المقدّمة من المتذوّقين والإشادة الصريحة من الشعراء يأتي ابن قتيبة إلى أقوال العلماء وأحكامهم في شعر زهير؛ ليلقي الأهمية والحكم الختامي قبل أن يأتي إلى تحكيم ميزان استحسانه الخاص ، يقول : " قال أبو عبيدة : يقول مَن فضّل زهيراً على جميع الشعراء : إنه أمدحُ القوم وأشدُهم أسرَ شعر. قال وسمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : الفرزدقُ يُشبّه بزهير. وكان الأصمعي يقول : زهير والحطيئة وأشباههما عبيد شعر، لأنهم نقّحوه، ولم يذهبوا به مذهب المطبوعين. قال : وكان زهير يسمّي كُبَرَ قصائده الحوليات"[١].

وابن قتيبة يعلم جلال قدر أبي عبيدة وأبي عمرو بن العلاء والأصمعي فهم روّاد علماء الأدب الذين أخذت عنهم الرواية والأحكام الانطباعية العامة، وكانوا نواة اتجاهات أدبية عريقة في تكوين مدارس الرواية الشعرية التي نهل منها ابن قتيبة علمه وتتلمذ على أيدي تلاميذهم، وابن قتيبة لأوّل مرّة في ترجمة شاعر يحشد آراء علماء كبار متتالية بأسمائهم التي تجعل من الحكم على مكانة شعر زهير تحمل صدقاً وثباتاً وموضوعية إلى حد كبير فيمن يليهم من العلماء والباحثين والمتذوقين، ولعل في النتيجة التي قدّم بها ابن قتيبة لكتابه الشعر والشعراء ــ عندما ذكر زهير أولاً في باب الشعر المتكلّف والمطبوع ــ دليلاً أكيداً أن هذا اللون من الشعر نضج ورست قواعده بين يدي زهير، ولعل هذه التسمية الخاصة لطواله من القصائد بالحوليات شكل آخر من دلالات التزام هذه الطريق الوعرة إلى نعيم الإتقان ودنيا الجمال الذي يزيده الصقل والزينة رونقاً بشكله ومعناه.

وبعد هذا ينهج ابن قتيبة في ميزان الاستحسان والاختيار للأشعار نهجه السابق عند امرئ القيس والأعشى والنابغة الذبياني، فيأتي بما سبق الشاعر غيره به، ثم ما يستحسن له ثم ما عيب عليه مع تعليل وجه العيب وحده، والعجيب في الأمر أن ابن قتيبة يخلط ترجمة كعب ابن زهير بترجمة أبيه[٢] ويخلط ذكره لما استحسن من شعر الوالد وشعر ولده دون فصل كما

٥٣٥١٣١

(١)الشعر والشعراء جـ١ ص٨١-٨٢ يقال إنها سبع حوليات.

(٢) انظر قصة كعب بن زهير وفراره من النبي عليه الصلاة والسلام ومن ثم رجوعه مسلماً مادحاً بقصيدة بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ــ الشعر والشعراء ضمن ترجمة زهير جـ١ ص٧٩-٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هي الحال في باقي تراجم كتابه، ولكنّ ابن قتيبة يسنّ لنفسه نهجاً في كتابه بذكر الأب مع ابنه أو الأخ مع أخيه من مثل : ترجمة مزرّد مع الشماخ، وما لك بن نويرة مع متمّم بن نويرة، وكعب بن جعيل مع عميرة بن جعيل، وأبي خراش الهذلي مع أسامة بن الحارث الهذلي.

والغريب في أمر ترجمة زهير في خلطها مع ترجمة ابنه كعب أنها لم تأتِ على أي مظهر من أشكال التأثُّر والتأثير سوى ما ذُكر سابقاً حول استمرار الشعر في بيت زهير، ويسوق ابن قتيبة بعدها حكماً لخلف الأحمر في المفاضلة بين الأب وابنه : " لولا أبيات لزهير أكبرها النّاس لقلتُ إن كعباً أشعرُ منه يريد قوله :

لِمَنِ الديارُ بقُنّةِ الحَجْرِ ... أقوَيْنَ من حِجَجٍ ومن دَهرِ
ولأنت أشجعُ من أسامةَ إذْ ... دُعَي النِّزالُ ولُجَّ في الذُّعْرِ
ولأنتَ تَفري ما خَلَقْتَ وبَعْـ ... ـضُ القومِ يخلُقُ ثمّ لا يفري
لو كُنْتَ من شيءٍ سوى بشرٍ ... كُنْتَ المُنوّر ليلةَ البَدْرِ "[1]

ولعل في هذه الإشارة دليلاً على اقتناع ابن قتيبة بهذا الرأي لأنه يحشد بعده أبياتاً استحسنها في منهجه وأخذها النّاس لتكون مثالاً يُحتَذى عند الشعراء الذين لحقوا بكعب في معانيه وصوره.[2].

ولا يطيل ابن قتيبة في ذكر إشارات صريحة حول بيئة زهير بل يذكر اسمه واسم أبيه الحقيقي ربيعة واسم قبيلته مزينة، ثم يُعدّي إلى مسألة إدراكه الإسلام نظر لما شاع عن زهير أنّه " كان يتألّه ويتعفّف في شعره، ويدلّ شعره على إيمانه بالبعث وذلك قوله :

يُؤَخَّرْ فيُودعْ في كتابٍ فيُدّخرْ ... ليومِ الحسابِ أو يُعجّلْ فيُنْقَمِ "[3]

فهل يعدّ ذلك من الحنيفية التي وُجدت في أجزاء من الجزيرة العربية قبل الإسلام؟وابن قتيبة يفطن في موضع آخر إلى تأكيد أنّ زهيراً لم يدرك الإسلام رغم الإشارة السابقة وكثرة

---

(١) الشعر والشعراء جـ١ ص٧٨ قنة الحجر : موضع بأعلى اليمامة ، أقوين : أقفرن، أسامة : أسد ، تفري : تقطع أمراً وتعمله ، خلقت : تهيأت لعمله (كناية عن عِظَم الهمّة) ينسب البيت الأخير للمسيب بن علس.

(٢)انظر المصدر نفسه ص٨٣-٨٤ وص٨٦.

(٣) المصدر نفسه جـ١ ص٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحكم الداعية إلى خير النّاس مع نبذ الحرب عنده، يقول ابن قتيبة : " وكان زهيرٌ جاهلياً لـــم يدرك الإسلام، وأدركه ابناه كعبٌ وبجير"[١] وفي ذلك يبقى ابن قتيبة صاحب ومَضات ضئيلـــة عن بيئة زهير بن أبي سلمى، فجميع الأخبار التي جاء بها عنه لم تُضِئ إلا فســـحات ضيّقـــة يصعب فيها تحميل القول أكثر مما يحتمل عن بيئة زهير الخاصة في قبيلته، أمّا ما تبقّى مـــن أشعار في هذه الأخبار فابن قتيبة ما انفك يشير إلى استحسان المتذوّقين والشـــعراء والعلمـــاء دون أدنى إشارة توضّح معالم هذه الأبيات لشهرتها عند أهل الأدب في زمانه.

وقد اختار ابن قتيبة لزهير بن أبي سلمى مئة وثمانية وثلاثين بيتاً، تكرر منها ثمانيـــة عشر بيتاً جلُّها في المدح لهرم بن سنان وتشجيعه السلام لفضّ حرب داحس والغبراء، وقـــد حاز المدح في اختيارات ابن قتيبة من شعر زهير ما يقارب ربع مختاراته فـــي كتابيـــه وقـــد استحسن منها " قوله :

يَطْعَنُهُم ما ارتَمَوا حتى إذا أطْعَنوا ضارَبَ حتى إذا ما ضارَبُوا اعْتَنَقا

ويُستحسَن أيضاً قوله :

هُوَ الجوادُ الذي يُعطيكَ نَائِلَـــهُ عفواً ويُظْلَمُ أحياناً فَيَنْظَلِمُ

قد سبق زهير إلى هذا المعنى، لا ينازعه فيه أحد غير كثير [عـــزّة] "[٢]ولكنـــه لـــم يغرق في تصوير أشكال المثل عنده كما فعل في ترجمة النابغة بل كان يذكـــر البيـــت الـــذي يتمثل به ويعطي إشارة عن تميّزه في المعنى وفي قدرته الفائقة على تأليف صور مختلفة فـــي بيت واحد كما فعل آنفاً فقد " جمع في بيت واحد صنوف القتال "[٣]، ويقول في موضـــع آخـــر على هذه الظاهرة في شعره : " وممّا سَبَق إليه زهير فلم يُنازع فيه قوله :

فإنَّ الحَقَّ مَقْطَعُهُ ثَلاثٌ: يَمينٌ أو نِفارٌ أو جلاءُ

---

(١) الشعر والشعراء جـــ١ ص٧٩ انظر شوقي ضيف –العصر الجاهلي ص٣٠٤ وص٣٠٣ ويقول :" أغلب الظنّ أنه لم يفارق دين قومه، إنما هي خطرات كانت تمرّ به "، ولكن الأمر يبقى قيد البحث عند شوقي ضيف لدليل تحريمه الخمر و الأزلام في كتاب ابن حبيب المحبّر ص٢٣٨.

(٢) الشعر والشعراء جـــ١ ص٧٩.

(٣)المصدر نفسه جـــ١ ص٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعني يميناً أو مُنَافَرةً إلى حاكم يقطع بالبيّنات، أو جلاء وهو بيانٌ وبرهان يجلـــو بـــه الحـــقّ وتتضّح الدعوى ... وكان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- إذا أُنشد هذا تعجّب من معرفتـــه بمقاطع الحقوق"[١] وقد لفتت هذه الظاهرة عناية ابن قتيبة في ترجمة امرئ القيس والأعشـــى ، وكأن القدرة على حشد الصور والمعاني المختلفة في بيت واحد ترسم في ذهن ابن قتيبة تفنّنـــا في التصرف باللغة والسّيطرة على أعنّة صورها مما يدل على عبقرية الشاعر وفحولته بيـــن أقرانه من الشعراء.

وأحياناً يبرّر ابن قتيبة إعجابه في الشعر بزيادة عدد الأبيات مـــن المقطوعـــة التـــي يختارها لشاعر ما على حساب غيره من الشعراء، فقد اختار ابن قتيبة مقطوعة للمـــدح مـــن شعر زهير بلغ عدد أبياتها أحد عشر بيتاً في حين لم تبلـــغ أي مقطوعـــة لامـــرئ القيـــس أو الأعشى أو النابغة نصف عدد هذه المقطوعة التي تعدّدت فيها صور المدح وتنوعـــت معانيـــه وبلغت المبالغة صورة حقيقة نظراً لما فعله الممدوح في حرب داحس والغبراء فحقـــاً كـــان شاعر الجمال والخير والحقيقة[٢] فقد أثبت زهير إجادةً ذات نَفَس طويل وقف أمامها ابن قتيبـــة طويلاً مع أنه قد أشار -في مقدمة كتابه- في رغبته الاختصار وتوضيح ما له أهميـــة ليوتـــي الكتاب أُكُلَه عند دارسي الأدب، ولكنّ المقام بشعر زهير أوصله إلى مثال ومدرســـــة بارعـــة بالفنون الشعرية المتنوّعة التي اختار منها ابن قتيبة قوله في فن المدح :

وَذي نِعْمةٍ تَمّمتها وشكرتها وخصمٍ يكادُ يغلبُ الحقَّ باطِلُهْ

.... إلى قوله :

تراه إذا مـــا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً كأنّكَ تُعْطِيهِ الذي أنتَ سائِلُهْ[٣]

---

(١)الشعر والشعراء جـ١ ص٨٥ و ص٧٩.

(٢) انظر حكم شوقي ضيف ــ العصر الجاهلي ص٣١٣ وص٣٣١ – ٣٣٢ حول هذه الأبيات ونقدها واستخلاص خصائص شعر زهير فيها.

(٣) الشعر والشعراء جـ١ ص٨٦ المدح لسيد بني فزاره حِصن بن حذيفة في حروب ضد عبس وغيرها من القبائل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يقع ابن قتيبة إلا موضعَين من العيوب التي استنفد العلماء السابقين له جـــهودهم فيها وهي على ضربين : ضرب فيه خطأ في تصوّر المعنى وضرب فيه الحاجة إلى الـــوزن بفك التضعيف وهذا ما يشير إليه قوله : " وأخذ العلماء عليه قوله يذكر الضفادع :

يَخْرُجْنَ من شَرَباتٍ ماؤها طَحِلٌ على الجذوعِ يَخَفْنَ الغمّ والغَرَقا

وقالوا : ليس خروج الضفادع من الماء مخافة الغمّ والغرق ، وإنّما ذلك لأنـــهنّ يَبِضْنَ فـــي الشّطوط ، وأُخِذَ عليه قوله :

ثمّ استَمَرّوا وقالوا : إنّ مَشْرَبَكُم ماءٌ بشرقيّ سلمى : فيدُ أو ركّكُ

وقال الأصمعي : سألت بجنبات فيد عن الركّك؟ فقالوا لي : ما هنـــا [ركّـــك] ولكـــن [رك]، فعلمْتُ أنّ زُهيراً احتاج فضعّف "[1]

وقد ظهرت بيئة الحرب في أثواب مختلفة من الفنون الشعرية، فهي تغادر المدح عنـــد زهير في مختارات ابن قتيبة في كتابيه حتى تدخل في الحكم ووصـــف الخيـــل التـــي تجـــهّز للحرب غالباً –لا للصيد– ، مع طغيان واضح لبيئة الحرب في الحديـــث عـــن روح القبيلـــة وعصبيتها وتماسكها أمام عوادي الدّهر التي تكالبت أيام حرب داحس والغبراء، ولكنّ زهـــيراً يستغل جميع هذه الأدوات التي شكلت بيئته ويصفها بدقة وخاصةً الخيل، يقـــول زهـــير فـــي وصف الإجارة ووجوب الحفاظ على حقّ الجار لأن منزلته كمنزلةً ابن العم :

وَجارُ البيتِ والرَّجُلِ المُنادي أمامَ البيتِ عقْدُهُما سَواءُ
فلم أرَ مَعشراً أسَـــروا هَدِيّاً ولم أرَ جارَ بيتٍ يُستَباءُ[2]

فمن ترسبات هذه الحرب برزت هذه النزعة التي يوضحها ابـــن قتيبـــة بقولـــه " المنـــادي: المُجالس من النادي وهو ابن العمّ والقرابة ، يقول : الجار والقرابة سواء ... يُستَباء من البَواء

---

(٢)الشعر والشعراء جـــ١ ص٨٧. انظر الديوان ص ٤١

[2] المعاني الكبير جـــ٢ ص١١٠٩. انظر الديوان ص١٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو القود، وذلك أنه أتاهم أراد أن يستجيرهم فقتلوه برجل منهم كان قُتِل، ويقال يُستباء يُتبـوّأ: أي تُتخذ امرأته أهلاً ، والهديّ : الرجل ذو الحرمة، وهو أن يأتي القوم يستجيرهم أو يأخذ منهم عهداً فهو هديّ مالم يجره فإذا أخذ العهد فهو حينئذ جار، ومعناه أن له حرمة كحرمة الهديّ، وهو الذي يهدى إلى البيت فلا يُردّ إلى البيت ولا يصاب بسوء "[١] .

وهذه العناية الشديدة من ابن قتيبة في طلب أكبر عدد من الاحتمالات الممكنة دليل أكيد على اهتمامه الكبير بإيصال المعنى إلى السامع في أبيات المعاني، فهو يستقصي في شرح الألفاظ ثم يورد اختصاراً لشرح البيت حتى يتأكد من إيصال المعنى الصحيح لهذه الأبيات، ولكنّه أحياناً يطرق باب اللغة ولا يغادره إذا شعر أنه شرح ما يمكن به جلاء أي صورة معتمة من البيت أو رواياته، يقول زهير مستكملاً الحديث عن حقّ الجار :

" بأيِّ الجِيرتَيْن أجَرتُموهُ فلمْ يَصلُحْ لَهُ إلاّ الأداءُ

يقول إن كنتم أنتم الذين أجرتموه فقد عقدتم و وجب حقّه عليكم وإن كان هو اختاركم من قِبَل نفسه وجاوركم فهو واجب الحقّ، وفسّره أيضاً فقال : الكفالة والجوار -والتلاء : الجوار- فأيّ الأمرين كان فلا يصلح إلا الأداء، قال أبو عبيدة : يُروى : بأي الجارتين . يقال أجاره إجارة مثل : أغرت إغارة وغارة، وأطعت إطاعة وطاعة، وأعدت إعادة وعادة -وهي من العادة- وأجبت إجابة و جابة "[٢]،فابن قتيبة يحشد أمثلة للمصدر من الفعل الماضي المعتل مع أنه يبدو مستغرقاً في بيان المعاني التفصيلية للمفردات والمعاني الإجمالية للبيت دون سابق تنبيه منه في كتاب المعاني الكبير ، ولعل هذه هي الحالة النادرة التي يوضح فيها ابن قتيبة المصدر من الفعل فهو -كما أسلفنا- يهتم بالمفردات ومعانيها المتحملة وبالمعاني الصائبة التي تجوز في فهم البيت -لا أكثر- ضمن الموضوع العام أو الباب الذي تنتظم فيه الأبيات الشعرية.

وبرز زهيرٌ عند ابن قتيبة في عرضه باب الخيل، وقد حاول ابن قتيبة ذكره في معظم ما يخصّ الخيل في وصف أعضاء جسمها[٣] ، وفيما يدخل جوّ الحرب من سرعة انقضاضها

---

(١)المعاني الكبير جـ٢ ص١١١٠.

[٢] المصدر نفسه جـ١ ص١١١٠-١١١١.

[٣] انظر الأبيات في ذلك المصدر نفسه ص٧٣ و ص٨٣ و ص١٣٣ و ص ١٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على الأعداء[١]، وفي نَزَقِها بمَن يركبها، حيث يقول زهير في الأخيرة :

" فَبِتْنا عُراةً عِندَ رأسِ جَوَادِنا يُزاوِلُنا عن نَفْسِه ونُزاوِلُه

الأصمعي قال : العرب تقول: بتنا عُراة أي مُشَمِّرين وعلينا أُزُرُنا ،و قال أبو عبيدة : عراة يعرونا عرواء أي رعدة من الزَمْع أي بنا زَمْع وحِرْص على القنص "[٢]

وفي ظلال الأبيات الأخيرة التي ساقها ابن قتيبة لزهير يُلاحظ أن معجم زهير غني يزداد فيه العلماء غوصاً بحثاً عن خبيئه اللّغوي، وكأنهم يتسابقون في استخراج الجديد ليضيفوه إلى سلسلة التميّز التي أحاطت بلغة زهير وبمعانيه الدقيقة.

ويبدو أن الهجاء لم يجد طريقاً عند زهير في اختيارات ابن قتيبة، فبقي فنّ الهجاء دفينَ بضعةِ أبياتٍ كانت فيها صورة النساء هي الأساسية لأنهن موطن المخافة في الحرب خوفاً من السّبي ولأنهن يأتين في مرتبة دون الرجل الجاهلي، يقول زهير :

وَما أدري وسوف إخالُ أدري أقومٌ آل حِصنٍ أمْ نساءُ
فإن تكُنِ النساءُ مُخبّآتٍ فحُقّ لكلّ محصنةٍ هداءُ[٣]

وفي هذا يبدو الهجاء عنده في صورة تحترم شرف مكانته في قبيلته فالهجاء غير مقذع ويأتي إلى السفه والجبن وقلة الحكمة والتشبيه بالنساء على أنه العيب الأكبر، وكأن الهجاء يأتي دافعاً للمهجوّ ليعدل عن سلوكه الخاطئ -في نظر زهير- لا لينال من شرف مكانةالمهجوّ.[٤]

---

(١) انظر الأبيات في جـ١ المعاني الكبير ص٢٩ ص٤٩.

(٢) المصدر نفسه جـ١ ص٥٧.

(٣)المصدر نفسه جـ١ ص٥٩٣ وانظر ص٢٩٨ وص٨٤٧ الهداء : المهر والزقاف. انظر الديوان ص ١٢

(٤) انظر شوقي ضيف -العصر الجاهلي ص٣١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة

خَلُصت الرسالة بعد -حمد الله والثناء عليه- إلى أبرز النتائج التالية :

١-حظوة الشعر الجاهلي عند ابن قتيبة في مصنّفيه كبيرة، فقد لاقت منه أولوية المبادرة في اختيار عدد الأبيات التي يستشهد بها على حساب العصور الأخرى؛ ولهذا بلغ تعدادها عنده أكثر من نصف المختارات، وقد حاز الشعر الجاهلي منزلة مثالية في ريادة الأشعار من حيث المعاني والصور التي لم يسبقها فيها أحد من الشعراء فضلاً عن نبع اللغة الأصيل الذي ورده من لحق بهم فنهلوا منه الكثير مع توضيحه أشكال التأثير في الشكل والمعنى .

٢-ثراء مميّز لكتاب "المعاني الكبير في أبيات المعاني" في مناقشة كثير من الموضوعات من شتى جوانبها الممكنة، ليعطي صورة متكاملة حول بيئة الموضوع المطروح، وظهر هذا بشكل مميّز في موضوعي : الحرب والخيل باستقصاء ابن قتيبة أكبر قَدْر متاح من الشعراء مع إغناء شعرهم بالتوضيح جملة أوتفصيلاً.

٣-إن الرغبة العقلانية في تحكيم ميزان الاستحسان قادت ابن قتيبة إلى تدعيم رأيه في ذكر مثالب الشعراء بالتعليل الصريح في كتاب الشعر والشعراء مع إيراده البديل الصحيح الذي وُفّق فيه شاعر آخر يصوّر ذلك المعنى دون تحيّز للجاهلي القديم، ولكن هذا الأمر لم ينطبق إلا على بضعة شعراء ــ ذُكر أكثرهم في الفصل الثاني من هذه الدراسة ــ ، وأمّا من تبقّى من الشعراء فلا تجد له عيباً رغم ما استشهد له من أشعار وما ذكر له من أخبار . وكأن الغنيمة أصبحت في تصيّد أخطاء الفحول لا غيرهم.

٤-عشوائية ابن قتيبة في تطبيق منهجه في الاستحسان على بعض الشعراء دون غيرهم، وكلما زادت الأخبار والأحكام على شاعر ما تجد أن ترجمته تزخر وتكبر، ولم يعزُ ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء استحسان بيت من الشعر لنفسه بل نجد الاستحسان لغيره موسوماً باسم صاحب الحكم تارة أو بدون وسمه تارة أخرى، ولعل جهده ينصب في الإصرار على تعليل الحكم في بيت معيب أو ردّ العيب عنه كما لوحظ في ترجمة امرئ القيس.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥-استغلال أكبر قدر ممكن من توضيح معاني المفردات المحتمل للكلمة الواحدة وعدم استقرار ابن قتيبة عند فهم أو حد للبيت الشعري بل يُلاحظ أنه يحشد كل المعاني المحتملة لمجمل البيت كما فعل في عرضه زهير.

٦-تفريق ابن قتيبة بين مفهومي " العيب الفني والعيب الأخلاقي".

٧-تفضيل ابن قتيبة الحديث عما يتصل بالإنسان وقضاياه -كما لوحظ في أوضح القضايا عنده- على حساب وصف الحيوان والطبيعة الذي بلغ فيه تعداد الأخير أقل من ربع عدد مختاراته في الإنسان وقضاياه.

٨-ندرة اعتداد ابن قتيبة بالوزن الموسيقي في مختاراته فلم أجد أدنى إشارة في كتابيه عن وزن بيت أو شيوع بحر عروضي عند شاعر بعينه، بل نجد أكثر اعتنائه بحرف الروي وعيب الإقواء -إن وجد-.

٩-أورد ابن قتيبة نصف عدد الشعراء الذين ذكرهم في الشعر والشعراء في كتابه المعاني الكبير في أبيات المعاني رغم أن ثلثي الشعر الجاهلي موجود في المعاني الكبير، وأحياناً أخرى لم يتطرق في كتابيه لأشعار بعض الشعراء الجاهليين المعروفين مثل بشامة بن الغدير حتى أنه لم يعثر له ولا للشنفرى على ترجمة في كتاب الشعر والشعراء.

١٠- إفراد ابن قتيبة لأشعار تحمل موضوعاً موحداً في تفصيل أبواب انعكست من بيئة ابن قتيبة في العصر العباسي من مثل لباس الملوك والسادة ووصف أدوات الطعام والتشاؤم،ويلاحظ ندرة طرقه للبيئة الدينية عند الإنسان الجاهلي أو حتى ما يدلّ عليها من عادات شاعت في طقوسهم الدينية.

١١- استطاعت المختارات الشعرية بالاستعانة بالمنهج الاجتماعي أن تصوّر أنماطاً متنوّعة من الحياة الجاهلية مم ساعد في صقل المعرفة بحياة الإنسان الجاهلي وبطبيعة التحديات الماديّة والمعنوية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثبت المصادر :

- القرآن الكريم .

- الأصفهاني ، أبو فرج علي بن الحسين [ت ٣٥٦ هـ] ـ الأغاني ،ط٢ ،ج٢٤ ، تح : سمير جابر ،الهيئة المصرية العامة،القاهرة ، ١٩٧٠.
- الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب[ت٢١٥هـ] ـ الأصمعيات ، ط٥ ،تح : عبد السلام هارون وأحمد شاكر ، دار المعارف ، ١٩٩٥ .
- الأعشى، ميمون بن قيس ـ ديوان الأعشى ، د.ط ، تح:محمد حسين ، مكتبة الآداب بالجماميز،د.ت.
- امرؤ القيس ـ الديوان ، د.ط ، ،دار بيروت و دار صادر ،بيروت ،١٩٥٨.
- البحتري ـ الحماسة ، ط١ ج ،تح:محمد محيي الدين عبد الحميد ،بيروت ،دار الكتب العلمية ،١٩٧٧.
- البغدادي ـ خزانة الأدب ، ط١ ج ، تح :عصام شعينو ، ، دار الهلال، بيروت،١٩٨٧ .
- البكري ،أبو عبد الله ـ سمط اللآلئ ، د.ط ، تح : عبد العزيز الميمني ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، ١٩٣٦.
- البكري، عبد الله بن عبد العزيز ـ معجم ما استعجم ، د.ط ، تح : فرديناد فوستفلد ، برلين، ١٩٧٦ .
- التبريزي،الخطيب ، أبو زكريا يحيى بن علي [ت ٥٠٢ هـ] ـ شرح القصائد العشر، د.ط ، إدارة الطباعة المغيرية ، القاهرة ، ١٩٢٤ .
- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر [ت ٢٥٠ هـ] ـ الحيوان ،ط ١ ج٧، تح : عبد السلام هارون ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٤٠.
- الجمحي ، محمد بن سلام [ت ٢٣١ هـ] ـ طبقات فحول الشعراء ،ط٢ ج٢ ، تح:محمود شاكر، دار المدني ، جدّة، ١٩٨٣.
- أبو دؤاد الإيادي ـ الديوان ،ط١ ، تح : عبد السلام هارون ،دار صادر ،بيروت، ١٩٦٨.
- ابن رشيق القيرواني ـ العمدة في صناعة الشعر ونقده ، ط٣ ج٨ ،تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ،القاهرة ، ١٩٦٤.
- زهير بن أبي سلمى ـ الديوان ،د.ط ، تح: كرم البستاني ، دار صادر و دار بيروت، بيروت ، ١٩٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الزوزني،الحسين بن أحمد [ت٤٨٦ هـ] ـ شرح المعلقات السبع ، د.ط ،المكتبة التجارية الكبرى ،مصر ، د.ت .
- سلامة بن جندل ـ الديوان ـ تح: صفية محمد بن الحسن الأموي ،د.ط، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٩٤.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر [ت ٩١١ هـ] ـ المزهر في علوم اللغة والأدب ـ ط١ ، ج٢ ،تح: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٨.
- طرفة بن العبد ـ الديوان ، د.ط ، شرحه وقدم له مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧.
- طفيل الغنوي ـ الديوان ، د.ط ، تح : محمد عبد القادر أحمد ، دار الكتاب الجديد، بيروت ، ١٩٦٨.
- العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله [ت٣٦٩ هـ] ـ جمهرة الأمثال ،ط٢ ،تح: محمد أبو الفَضل إبراهيم ، ط٢ ، دار الفكر، بيروت ، ١٩٨٨.
- ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم [ت ٢٧٦ هـ] ـ الشعر والشعراء ،[طبعة محقّقة تعليق إحسان عباس و محمد نجم] د.ط ، ج٢ ، دار الثقافة ، بيروت، د.ت.
- ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم ـ عيون الأخبار ـ ج ٤ ، د.ط ،تح: أحمد زكي العدوي ، دار الكتاب العربي، بيروت ، د.ت .
- ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم ـ الميسر والقداح ، د.ط ،تح: محيي الدين الخطيب، المطبعة السلفية ، القاهرة ،١٩٢٣.
- ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم ـ المعاني الكبير في أبيات المعاني ط١ ، ج٢، [طبعة محققة مفهرسة] ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية،حيدر أباد الدكن ،١٩٤٩.
- القلقشندي،أحمد بن علي [ت٨٢١ هـ] ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ،ط١ ،ج٨، تح:يوسف علي طويل،دار الفكر ، دار الفكر ،١٩٨٧.
- قيس بن الخطيم ـ الديوان ـ تح: ناصر الدين الأسد ،ط٢ ، دار صادر،بيروت ، ١٩٦٧.

- المرزوقي ، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن ـ شرح ديوان الحماسة،د.ط ، تح : أحمد أمين ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- المفضل الضبي، أبو العباس المفضل بن محمـــد [ت ١٦٨ هـــ] ــ المفضليـــات، د.ط، تح : كارلوس لايل ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٢٠ .
- ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ــ لسان العـــرب ، ط١ ، دار صادر،بيروت ، ١٩٩٥ .
- الموصلي،نصر الله بن محمد [ت ٦٣٧ هـ] ــ المثل السائر ، ج٢ ،تح:محمد محيـي الدين عبد الحميد، ط٢ ،بيروت ،المكتبة العصرية ،١٩٩٥ .
- الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد [ت ٥١٨ هـ] ــ مجمـــع الأمثـــال ، ط٢ ، ج٢ ، تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٨.
- النابغة الذبياني ، زياد بن معاوية ــ الديوان ، د.ط ، تح : محمد الطاهر بن عاشـور ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، ١٩٧٦.
- اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب ــ تاريخ اليعقوبي ــ ط٢ ، ج٣ ، تح : عبد الأمـير مهنا ، ط٢ ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، ١٩٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثبت المراجع:

- الألوسي ، محمود شكري ــ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ــ ط ٣، ج٤ ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة، ١٩٢٣.
- أحمد أمين ــ فجر الإسلام ، ط ١٢ ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ١٩٦٣.
- أحمد الشايب ــ تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني ، ط٥ ، دار القلم،بيروت ، ١٩٧٦.
- أحمد الحوفي ــ الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، ط٣ ، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٦.
- أدونيس ــ مقدمة للشعر العربي ، د.ط ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧١.
- أدونيس ــ كلام البدايات ، ط ١ ، دار التراث ،بيروت ، ١٩٩٢.
- جواد علي ــ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط١ ،ج١٠ ، دار العلم للملايين ومكتبة النهضة ببغداد ، بيروت،١٩٧٢.
- جورجي زيدان ــ تاريخ الآداب العربية ،ط٢ ،ج٤ ، مكتبة الحياة ،بيروت ،١٩٧٨ .
- زكريا ابراهيم ــ مشكلة الحياة ، د.ط ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٧١.
- سعد ضناوي ــ أثر الصحراء في الشعر الجاهلي ، ط١ ، دار العلوم ، الرياض ، ١٩٩٥.
- شكري عياد ــ البطل في الأدب والأساطير ، د.ط ، دار المعرفة ، القاهرة ، ١٩٥٩.
- شوقي ضيف ــ العصر الجاهلي ــ ط١٠ ، دار المعارف ،القاهرة ، ١٩٨٢.
- صلاح عبد الصبور ــ قراءة جديدة لشعرنا القديم ، د.ط ، دار النجاح ،بيروت ، ١٩٧٣.
- عبد الحميد الجندي ــ ابن قتيبة العالم الناقد الأديب ،ط ١ ،وزارة الثقافة و الإرشاد القومي ، القاهرة ،١٩٦٣ .
- عبد الرزاق الخشروم ــ الغربة في الشعر الجاهلي ، ط١ ، دار البشير،عمان ، ١٩٩٨.
- عبد القادر الرباعي ــ الصورة الفنية في النقد الشعري ، ط٢ ، مكتبة الكتاني ،إربد ، ١٩٩٥.
- عز الدين إسماعيل ــ الأدب وفنونه ، ط٦ ، دار الفكر العربي،القاهرة ، ١٩٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- علي الجندي ــ ملحق تاريخ الأدب الجاهلي ، د.ط ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ،د.ت.
- عمر فروخ ــ العرب في حضارتهم وثقافتهم ، د.ط ،دار العلم للملايين ،بيروت ، ١٩٦٦.
- فؤاد سزكين ــ تاريخ التراث العربي ،ط١ ، نقله إلى العربية محمود فهمي إحجازي، جامعة الإمام حمد بن مسعود، الرياض ، ١٩٩١.
- قصي حسين ــ العمارة الفنية في شعر امرئ القيس ، د.ط ، المكتبة الحديثة، طرابلس ، د.ت .
- كمال أبو ديب ــ الرؤى المقنعة ، ط١ ،الجامعة المستنصرية ، بغداد ، ١٩٨٦.
- لودميلا بولفيا ــ الإنسان نشاط وتواصل ، ترجمة زياد الملا ، د.ط ، دار دمشق، دمشق ،١٩٨٣.
- مبروك المناعي ــ الحرب في شعر عنترة ، د.ط ، دار التراث ، بيروت، د.ت
- محمد عثمان علي ــ في أدب ما قبل الإسلام " دراسة وصفية تحليلية " ، ط٢، دار الأوزاعي ،بيروت، ١٩٨٣.
- محمد فؤاد نعناع ــ الجود والبخل في الشعر الجاهلي ، ط١ ، دار طلاس ،دمشق ، ١٩٩٤.
- محمد النويهي ــ الشعر الجاهلي " منهج في دراسته وتقويمه " ، د.ط ، الدار القومية، القاهرة ، د.ت
- محمود الحوت ــ في طريق الميثولوجيا عند العرب ، ط٣ ، دار النهار ،بيروت ، ١٩٨٣.
- مرسيا إلياد ــ المقدس والدنيوي ، د.ط ، دار صادر ، بيروت ، د.ت
- مصطفى عبد اللطيف جياووك ــ الحياة والموت في الشعر الجاهلي ، د.ط ،وزارة الإعلام ، بغداد ، ١٩٧٧.
- مصطفى ناصف ــ دراسة الأدب العربي ، ط٢ ، دار الأندلس ،بيروت ، ١٩٨١.
- مصطفى ناصف ــ قراءة ثانية لشعرنا القديم ، د.ط ، ، جامعة بنغازي ،بنغازي، د.ت.
- ناصر الدين الأسد ــ مصادر الشعر الجاهلي ، ط٢ ،دار المعارف ، مصر ،١٩٨٨
- نصرت عبد الرحمن ــ الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ، ط٢ ، مكتبة الأقصى،عمان ، ١٩٨٢.
- نوري حمودي القيسي ــ شعر الحرية ــ ط٢ ،بغداد ، دار الجاحظ ، ١٩٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- هاشم ياغي وآخرون ــ تاريخ الأدب العربي ، ط١ ،منشورات جامعة القدس المفتوحة، عمان ، ١٩٩٥.
- هاشم ياغي ــ معاناة ومعايير في طائفة من القصائد الجاهلية والمخضرمة ، ط١، دارالفجر ،بيروت ، ١٩٩٠.
- وهب أحمد رومية ــ شعرنا القديم والنقد الحديث ، ط ١ ،المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب ،الكويت ، ١٩٩٦.
- يوسف اليوسف ــ بحوث في المعلقات ، د.ط ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ، ١٩٧٨.
- يوسف اليوسف ــ مقالات في الشعر الجاهلي ، د.ط ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي،دمشق ، ١٩٧٥.
- ياسين النصير ــ إشكالية المكان في النص الأدبي ،ط١ ، دار الشؤون ،بغداد ،١٩٨٦

الرسائل الجامعية

- الأمين محمد الصغير ــ رؤية الشاعر الجاهلي للحياة من خلال رمز الطلل ، جامعة الجزائر، الجزائر، ١٩٨٤.
- عمر الفجاوي ــ قضايا المنتقيات السبع في جمهرة أشعار العرب في ضوء الشعر الجاهلي ،الجامعة الأردنية ،عمان ، ١٩٩٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Summary of the study

Per-Islamic Poetry in Ibn Qutaiba's Ashi'r Washuara and Al-Ma'ani Al-Kabir: An Analytical Study

Prepared by: Yahya Rashed Hussein Al-Omari

Supervised by: Prof. Dr. Hashem Yaghi

This thesis deals with the study of Ikkiterarcy (Pre-Islamic) poetry that has been chosen by Ibn-Qutaiba in his two books: Ashi'r Washuara and Al-Ma'ani Al-Kabir. This has been approached by two ways; one of which is new and the other old. This thesis consists of an introduction, two chapters, and a conclusion.

The introduction explains the relationship between the searchers and the search it self. It also shows the way through which the two chapters were approached. While the introduction talks about Ibn Qutaiba's methodology, the amount of the poetry and the number of the poets mentioned in the two books, the first chapter represents a more detailed discussion for the issues included in the pre-Islamic Poetry that Ibn Qutaiba had chosen in these two books.

The second chapter presents a viewing of the different methods that Ibn Qutaiba chose to present the four most-mentioned poets in his two books. The chapter, moreover, shows the different aspects that have been focused and the harmony that exists among these aspects, the bibliography, and even the methodology established in the introduction of his book Ashi'r Washuara.

The conclusion shows the gist of the thesis and the result of research within the two books.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit